فاتح القسطنطينية

السلطان محمد الفاتح

تأليف
د. على محمد محمد الصلَّابِّى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٧٠٠٧

الترقيم الدولى: I.S.B.N

977- 265- 669- 8

دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصـــر - القاهـــرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فـاكس: ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

عندما ظهر كتاب «الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط» فى المعارض الدولية كان إقبال الناس عليه كبيراً، وقد جاءتنى ملاحظات كثيرة عن الكتاب، وكان مجموعة من القُراء من أماكن متعددة قد اتفقوا على ضرورة إفراد محمد الفاتح بكتاب مستقل، ووجدت هذه الفكرة قبولاً عند الناشر، فشرعنا فى تنفيذ الفكرة، فالكتاب مأخوذ من كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، فإن بارك الله فى العمر والوقت وسهل السبل، فبإذن الله تعالى سيلحق هذه الدراسة أبحاث عن نفس المنهج لإحياء بعض سير أبطال الأمة الذين كان لهم تأثير فى تاريخنا المجيد.

إن هذا الكتاب يتحدث عن محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم وعن أجداده العظام الذين عاشوا بالإسلام وماتوا فى سبيل إعلاء كلمة الله، يتحدث عنهم حديثًا منصفًا، فيبين للقارئ الكريم سيرة عثمان الأول، وأورخان ومراد الأول، وبايزيد الأول، ومحمد جلبى، ومراد الثانى، ومحمد الفاتح، ويوضح صفاتهم والمنهج الذى ساروا عليه، وكيف تعاملوا مع سنن الله فى بناء الدولة كسنة التدرج، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة تغيير النفوس، وسنة التدافع، وسنة الابتلاء، وكيف حقق القادة الأوائل شروط التمكين، وكيف أخذوا بأسبابه المادية والمعنوية، وماهى المراحل التى مرت بها الدولة، وكيف كان فتح القسطنطينية نتيجة لجهود تراكمية شارك فيها العلماء والفقهاء والقادة والجنود على مر العصور، وكر الدهور، وتوالى الأزمان. ويبين للقارئ الكريم أن النهوض العثمانى فى عصر السلطان محمد الفاتح كان شاملاً فى جميع المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والحربية، وإن للتمكين صفات، لابد من توافرها فى القادة، وبفقدها يفقد التمكين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

إن هذا الكتاب يقف بالقارئ على بعض سنن الله فى المجتمعات والأمم والشعوب وبناء الدول، ويوضح أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية فى زمن السلطان محمد الفاتح، ويدعو القارئ الكريم للتأمل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ليفهم فقه إحياء الشعوب وبناء الدول حتى يكتسب العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله فى الأنفس والكون والآفاق، وكتاب الله تعالى ملىء بسننه وقوانينه المبثوثة فى المجتمعات والدول والشعوب، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وقد أرشدنا كتاب الله تعالى إلى تتبع آثار السنن فى الأمكنة بالسعى والسَّيْر، وفى الأزمنة من التاريخ والسِّيَر، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكير.

قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠١، ١٠٢].

إن السنن الإلهية تتميز بخصائص من أهمها: أنها قدر سابق، أنها لا تتحول ولا تتبدل، أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها، ولا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتعظ بها المتقون، أنها تسرى على البر والفاجر.

ولقد ركزت فى هذه الدراسة على آثار تحكيم شرع الله تعالى زمن السلطان محمد الفاتح، فبينت تلك الآثار، كالاستخلاف والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل، وتحدثت عن صفات محمد الفاتح وعن أعماله الحضارية، وتطرقت لوصيته لابنه وهو على فراش الموت، والتى تعبر أصدق التعبير عن منهجه فى الحياة وقيمه ومبادئه التى آمن بها والتى يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها، فشرحتها وبينت أصولها وقواعدها وأيقنت بأن قادة الأمة وزعماءها فى أشد الحاجة لدراستها وفهمها وتطبيقها، وتعرضت للشبهات التى ألصقت بمحمد الفاتح كالتى افتراها المؤرخ الإنجليزى إدوارد شيبرد كريسى فى كتابه تاريخ العثمانيين الأتراك وحاول أن يشوهه صورة الفتح الغثمانى للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامى المجيد، وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة فى عام ١٩٨٠م فى حمأة الحقد الصليبى ضد الإسلام، فزعمت أن السلطان محمد الفاتح قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية وساقهم إلى أسواق الرقيق فى مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك، فنفيت هذه الشبهات من جذورها وأقمت الحجج القاطعة والبراهين الساطعة على الحقائق التاريخية الناصعة التى تبين أن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم وأمنهم على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وبينت أن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبى

الكريم ﷺ ثم بخلفائه الراشدين من بعده فى معـاملتهم لأهل الذمة الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم.

ومن ذا ينكر الدور الذى قام به العثمانيون حين استنجد بهم المسلمون فى شمال إفريقـيا، يوم زحفت عليهم الجـحافل الغازية من إسبـانيا وغيرها، وعلـى رأسها الكاردينال (خمينس)، مما دفع بالمسلمين فى الشمال الإفريقى أن يستنجدوا بالدولة العثمانية التى سارعت فى مـساندة إخوانها فى الدين، وبرز القائد العظيم والمجاهد الكبير خير الدين بربروسه الذى راح يجوب البحر الأبيض المتوسط ليطهر الشواطئ الإفريقية الشمالية من الغزاة، حتى مكـن للإسلام فيها مرة أخرى وحمى المسلمين فى تلك الديار من شر محقق.

والقسطنطينية التى بشر رسول الله ﷺ بفتحها، من ذا الذى فتحها غير السلطان محمد الفاتح، الذى وضع خطة غاية فى دهاء التدبير وروعة فى الإعداد العسكرى ودقة التنفيذ، يـوم حمل السفن برًا على جذوع الشجر، ثم دحـرجها وأنزلها إلى البـحر خلف البـيـزنطيين من حـيث لا يتـوقعـون، مما أدى إلى دحـر أسطولهم وهزيمتهم، وفتح القسطـنطينية التى أصبحت فيما بعد عاصـمة الخلافة، وحملت اسم إسلامبول أو استانبول، لماذا نحاول أن نطمس تاريخ مثل هذا السلطان محمد الفاتح، الذى أمضى أيـامه ولياليه فى خيـام الجهاد، وعلى صهـوات الجياد، ولم يعرف طعم النوم والراحة فى المدن والقصور؟[1].

لقد تعـرضت للعثمـانيين، ماذا لهم ومـاذا عليهم فى كتـابى الدولة العثمـانية عوامل النهوض وأسباب السقوط. أما هذا الكتـاب فإنه يهتم بسيرة السلطان محمد الفاتح وعوامل النهوض فى عصره.

لقد تعرض بعض المثقـفين ممن تأثروا بالمناهج الغربية فى كتـابة التاريخ لما كتبت فى سلسلة صفحـات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى بالنـقد وقالوا: ما دخل العقـائد فى التاريخ؟ وما عـلاقة صفات القـادة بالتاريخ؟ وما عـلاقة تحكيم الشرع بالتاريخ؟.

---

(١) انظر: تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظم، ص (١٧٤ - ١٧٧).

وأقول وبالله التوفيق: إن منهج كتابة التاريخ الإسلامى وتفسير حوادثه يعتمد فى أصوله على التصور الإسلامى، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هى الأساس فى منطلقاتها المنهجية، وفى تفسير حوادثه والحكم عليها، ويعلل ذلك الدكتور أكرم ضياء العمرى بقوله: إلا أن التفسير الإسلامى للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون والحياة، والإنسان، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، فهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية، كما أنه مبنى على دوافع السلوك فى المجتمع الإسلامى الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامى ذات طابع متميز عن حركة التاريخ الإسلامى العالمى لأثر الوحى الإلهى فيه[1].

لذا ينبغى فى تفسير التاريخ الاستمداد من المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك فى المجتمع الذى نشأ وتكون على هدى الشريعة، وشكل حياته وتصوراته وفقًا لها، وكانت تعليماتها وأوامرها، ونواهيها موجهة لكثير من حركاته فى الدعوة إلى الله، وفى الجهاد فى سبيل الله، وفى التعليم، وفى بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية، وفى علاقات المجتمع الإسلامى مع بعضه ومع غيره من المجتمعات.

ولكى يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامى صحيحًا وواقعياً فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التى شكلت المجتمع وتحكمت فى حركته وبناء تصوراته وثقافته، وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهى الشرعية، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات؟ وكم منها مائل عنها؟ لنعرف مدى الأثر الذى أحدثه الإسلام فى حياة المجتمعات الإنسانية، ولنعرف كذلك قيمة الخسائر التى لحقت بالمجتمع الإنسانى من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله، وندرك أيضًا فضل الله ورحمته بهذه البشرية، إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور، ومن الجور إلى العدل، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه. قال تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

---

(١) إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامى، د. أكرم ضياء العمرى، ص (٣).

فالمنهج الإسلامى فى كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره، وهذا سر المفارقة بينه وبين المناهج الأخرى، ففى مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه ليس تفسيراً تبريرياً بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلى على سواه[1].

ويضيف الدكتور أكرم العمرى فى ذلك: أنه ليس تفسيرًا ماديّاً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشرى فى العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج - كما فى الفكر الماركسى - أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجى - من مناخ وجغرافيا واقتصاد - كما فى الفكر الغربى، بل هو يوضح دور الإنسان ومسئوليته عن التفسير الاجتماعى والتاريخى فى إطار المشيئة الإلهية[2].

إن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدى تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامى، فإذا ما اختل شىء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء متأثرة بالأحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث، وذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين فى أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم فى العودة إلى المراجع الشرعية، وبعضها ناتج عن الغبش فى التصور، وعدم وضوح الرؤيا بالغزو الفكرى الأوروبى.

إن المنهج الذى سرت عليه فى الدراسات التاريخية هو المنهج القرآنى فى عرض القصص، ولذلك اهتممت بإبراز صفات القادة والمسائل العقدية والأصول التى تقوم عليها الدول وتحيى بها الشعوب، ولنضرب على ذلك مثلاً من القرآن الكريم فى ذكر نبى الله داود -عليه السلام-.

إن المتأمل فى القرآن الكريم فى قصة داود -عليه السلام- يتعرف على صفات الحاكم المؤمن الذى مكن الله له، وهى تحقق للقائد المصلح كمال السعادة فى الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، فذكرت هذه الآيات بعض الصفات، فمنها:

---

(١) انظر: صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى، للصلابى، ص (٥٨، ٥٩).

(٢) انظر: إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامى، د. أكرم ضياء العمرى، ص (٣).

١- الصبر: فقد أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدى به فى الصبر على طاعة الله.

٢- العبودية: فقد وصفه ربه بقوله: (عبدنا) وعبّر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم والوصف بالعبودية لله غاية التشريف، كوصف محمد ﷺ بها ليلة المعراج ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

٣- القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصى فى قوله: (ذا الأيد).

٤- والرجّاع إلى الله بالطاعة فى أموره كلها، فى قوله: (إنه أواب).

ووصفه بالقوة على طاعة الله وبأنه أواب دليل على كمال معرفته بالله التى جعلته يجتهد فى العبادة على نهج ربانى صحيح.

وقد ذكر الله تعالى ذلك من صفات داود -عليه السلام-، وتحدث القرآن الكريم عن الفتنة والابتلاء التى تعرض لها داود -عليه السلام-، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢١ - ٢٤].

وقد ذكر العلماء فى الآيات السابقة فوائد عظيمة، وحكمًا جزيلة، وقد تحدث القرآن الكريم بعد آيات الابتلاء على استخلاف الله تعالى لداود -عليه السلام-، قال: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فقد بين الله تعالى قواعد الحكم فى الآيات السابقة تعليمًا للمسلمين:

١- ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى فاقض بين الناس بالعدل الذى قامت به السموات والأرض، وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

٢- ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أى لا تمل عن الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار.

إن الآية الكريمة تبين أن الحكم بين الناس، مرتبة دينية، تولاها رسل الله، وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق، ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضى العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها فى الحكم الشرعى، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه، وتبين كذلك أن الحاكم ينبغى له أن يحذر الهوى، ثم تحدثت الآيات بعد ذلك عن مسائل عقائدية مهمة فى حياة المسلم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٧ - ٢٩].

ثم تحدث القران عن هبة الله لداود -عليه السلام-، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وتحدث القرآن الكريم عن صناعة الأسلحة التى كان يقوم بها داود -عليه السلام-، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاف، إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له، أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذى هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك فى خطورة مادة الحديد فى صناعة الحضارات وبناء الدول، وفى حسم انتصارات الجيوش.

إن هذه المنهجية القرآنية هى التى سرت عليها فى كتابتى التاريخية، ولذلك اهتممت بصفات القادة، وعقائدهم والمنهج الذى ساروا عليه، وبعدهم وقربهم من

شرع الله تعالى، فهذه المنهجية تخالف المناهج الغربية فى دراسة التاريخ، لأنها تنبثق من تصور للحياة والكون والإنسان وحركة التاريخ من خلال منهج الخلاّق العليم المتمثل فى كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم ﷺ، وهذا المنهج فى كتابه الذى يحرر المتأثرين بالمناهج الغربية فى كتابة تاريخنا من تلك الأغلال والقيود الفكرية التى فرضها المستعمر، والذى حاول ولا يزال جاهداً أن يبعد المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم.

هذا وقد جاءتنى بعض الانتقادات العلمية من بعض الباحثين، وقد استفدت منها، فلهم منى الشكر والدعاء بظهر الغيب بالتوفيق والسداد، وأن يوفقنا جميعًا لخدمة ديننا وعقيدتنا وتاريخ أمتنا المجيد.

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى تمهيد وفصلين، والخلاصة:

الفصل الأول: قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها:

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: عثمان مؤسس الدولة العثمانية

المبحث الثانى: السلطان أورخان بن عثمان.

المبحث الثالث: السلطان مراد.

المبحث الرابع: السلطان بايزيد الأول.

المبحث الخامس: السلطان محمد الأول.

المبحث السادس: مراد الثانى.

الفصل الثانى: محمد الفاتح وفتح القسطنطينية:

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: السلطان محمد الفاتح.

المبحث الثانى: الفاتح المعنوى للقسطنطينية الشيخ شمس الدين آق محمد بن حمزة.

المبحث الثالث: أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبى والإسلامى.

المبحث الرابع: أسباب فتح القسطنطينية.

المبحث الخامس: أهم صفات محمد الفاتح.

المبحث السادس: بعض من أعماله الحضارية.

المبحث السابع: وصية السلطان محمد الفاتح لابنه، ثم الخلاصة.

وأخيرًا أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، وأهدى للقارئ الكريم هذه الأبيات المعبرة:

ملكنا هذه الدنيا قرونًا ... وأخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسى الزمان ولا نسينا

وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالركب قوم آخرونا

وآلمنى وآلم كل حر ... سؤال الدهر أين المسلمونا؟

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

على محمد محمد الصلّابِّى

الفصل الأول

قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها

تمهيد

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجرى الموافق الثالث عشر الميلادى تعيش فى كردستان، وتزاول حرفة الرعى، ونتيجة للغزو المغولى بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر فى عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر فى مدينة أخلاط[١]، ثم بعد وفاته فى ٦٢٨هـ الموافق ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذى واصل تحركه نحو الشمال الغربى من الأناضول، وكان معه حوالى مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس[٢]، وحين كان أرطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التى لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حاميًا بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطى، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه فى الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سببًا فى نصر المسلمين على النصارى[٣]. وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامى السلجوقى هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضًا فى الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور فى الروم[٤]، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفًا قويًا ومشاركًا فى الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم فى العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفى سنة ٦٩٩هـ- ١٢٩٩م[٥] خلفه من بعده فى الحكم ابنه عثمان الذى سار على سياسة أبيه السابقة فى التوسع فى أراضى الروم[٦].

---

(١) أخلاط مدينة فى شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وآن فى أرمينيا.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص(٢٦).

(٣) انظر: جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين، زياد أبو غنيمة، ص(٣٦).

(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمرى، ص(٣٥٣).

(٥) انظر تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابى للقرمانى، ص(١٠)..

(٦) انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد، ص(١١٥).

المبحث الأول

عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عـام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ولد لأرطغرل ابـنه عثـمان الذى تنـتسب إليـه الدولة العثمانية[١]، وهى السنة التى غزا فيهـا المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصـمة الخلافة العباسية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: «ومالوا على البلد فقـتلوا جميع من قدروا عليـه من الرجال والنساء والولدان والمشـايخ والكهول والشبان، ودخل كثير مـن الناس فى الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظـهرون، وكان الجماعـة من الناس يجتمعون إلى الحـانات ويغلقون عليهم الأبواب فـتفتحهـا التتار إما بالكسـر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فـيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فـيقتلونهم بالأسطحـة، حتى تجرى الميـازيب من الدماء فى الأزقة، فإنا لله وإنا إليـه راجعون. وكذلك فى المساجـد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[٢]».

لقد كـان الخطب عظيمًـا والحدث جللاً، والأمة ضـعفت ووهنت بسـبب ذنوبها ومعاصيها، ولذلك سلط عليها المغـول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهـبـوا الأمـوال، وخـربوا الديار، فى تلك الظروف الصـعـبـة والوهن المستشرى فى مـفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثـمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة فى التمكين هى أقـصى نقطة من الضعف والانحطاط، تلك هى بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقال سبـحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦]

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبد السلام عبد العزيز، ص(١٢).

(٢) البداية والنهاية، (١٣/ ١٩٢، ١٩٣)

البحر الأسود

باطوم

طرابزون

القسطنطينية

بحر مرمرة

بيزنطة

كوتاهية

ازمير

سلاجقة الروم

قونية

حلب

البحر المتوسط

المنطقة التي قامت عليها
الدولة العثمانية

ولاشك أن الله تعالى قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين فى عشية أو ضحاها، بل فى طرفة عين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فلا يستعجل أهل الحق موعد الله عز وجل لهم بالنصر والتمكين، فلابد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية، ولابد من الصبر على دين الله عز وجل ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] والله إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه وأتى به شيئًا فشيئًا بالتدرج لا دفعة واحدة.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذى ولد فى عام سقوط الخلافة العباسية فى بغداد.

أولاً: أهم الصفات القيادية فى عثمان الأول:

عندما نتأمل فى سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة فى شخصيته كقائد عسكرى، ورجل سياسى، ومن أهم هذه الصفات:

١- الشجاعة: عندما تنادى أمراء النصارى البيزنطيون فى بورصة ومادانوس وأدرهنوس وكته وكستله فى عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م لتشكيل حلف صليبى لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة، تقدم عثمان بجنوده، وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية، وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين[١].

٢- الحكمة: بعدما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده فى افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقى علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم. وسمح له بسك العملة باسمه، مع الدعاء له فى خطبة الجمعة فى المناطق التى تحته[٢].

---

(١) انظر: جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك، ص (١٩٧).

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص (٢٥).

٣- الإخلاص : عندما لمس سكان الأراضى القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعًا أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين(١).

٤- الصبر: وظهرت هذه الصفة فى شخصيته عندما شرع فى فتح الحصون والبلدان، ففتح فى سنة ٧٠٧هـ حصن كته، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفى سنة ٧١٢هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكارى وغيرها، وقد توج فتوحاته هذه بفتح بروسة فى عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧هـ، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات،ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة؛ بل كان من أصعب ما واجهه عثمان فى فتوحاته، حيث حدث بينه وبين قائد حاميتها أقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات، حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٥- الجاذبية الإيمانية: وتظهر هذه الصفة عندما احتك به أقرينوس قائد بروسه واعتنق الإسلام، فأعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذى سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم(٢)؛ بل إن كثيرًا من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أى غزاة الروم، وهى جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسى، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات فى جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام والتزامها بكل ما جاء به الإسلام من نظام، وجماعة (الإخيان) (أى الإخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة، وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذى سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية مثل: إقامة المساجد والتكايا والخانات والفنادق،وكانت لهم فى الدولة مكانة عالية، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا فى نشر الثقافة الإسلامية وحببوا الناس فى التمسك بالدين،

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص (٢٦).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٨).

وجماعة (حاجيات روم) أى حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالإسلام، ومعرفة دقيقة بتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عمومًا والمجاهدين خصوصًا وغير ذلك من الجماعات[1].

٦- العدل: تروى معظم المراجع التركية التى أرخّت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء فى مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين فى عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، وأن عثمان حكم لبيزنطى نصرانى ضد مسلم تركى، فاستغرب البيزنطى وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحى وأنا على غير دينك؟ فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذى نعبده، يقول لنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وكان هذا العدل الكريم سببًا فى اهتداء الرجل وقومه إلى الإسلام[2].

إن عثمان الأول استخدم العدل مع رعيته، وفى البلاد التى فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور، أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش، وإنما عاملهم بهذا الدستور الربانى: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]. والعمل بهذا الدستور الربانى يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

٧- الوفاء: كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة أولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثمانى، أن لا يمر من فوق الجسر أى عثمانى مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده[3]. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

٨- التجرد لله فى فتوحاته: فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة لتبليغ دعوة الله ونشر دينه، ولذلك وصفه

---

(١) انظر: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى د. على عبد الحليم، ص (٣٣١، ٣٣٢).

(٢) انظر: جوانب مضيئة، ص (٣٢).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٣).

المؤرخ أحمد رفيق فى موسوعته (التاريخ العام الكبير) بقوله: (كان عثمان متدينًا للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس، وكان مالكًا لفكر سياسى واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حبّاً فى السلطة وإنما حبّاً فى نشر الإسلام)[1].

ويقول مصر أوغلو: «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيمانًا عميقًا بأن وظيفته الوحيدة فى الحياة هى الجهاد فى سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعًا بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف»[2].

هذه بعض صفات عثمان الأول والتى كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى، والاستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه العميق للجهاد فى سبيل الله والدعوة إليه، ولذلك كان عثمان فى فتوحاته يطلب من أمراء الروم فى منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هى الدخول فى الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض الآخر وقبلوا دفع الجزية. أما ما عداهم فقد شن عليهم جهادًا لا هوادة فيه فانتصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة، وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف فى آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأى وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة، ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية. لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى، وكان حريصًا على الأعمال الإصلاحية فى كل الأقاليم والبلدان التى فتحها، فسعى فى بسط سلطان الحق والعدالة، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معاديًا لأهل الكفران.

---

(١)، (٢) انظر: جوانب مضيئة، ص (٣٣).

ثانيًا: الدستور الذى سار عليه العثمانيون:

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهادًا ودعوة فى سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإدارى والتنفيذ الشرعى فى الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت، وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد يقول عثمان فى وصيته: (يا بنى: إياك أن تشتغل بشىء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يا بنى: أحط من أطاعك بالإعزاز. وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بنى: إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.

يا بنى: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدى ما أنت له أهل)(١).

وفى كتاب (التاريخ السياسى للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية: (اعلم يا بنى، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة فى عنقك سيسألك الله عز وجل عنها)(٢).

وفى كتاب مأساة بنى عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: (يا بنى، إننى أنتقل إلى جوار ربى، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً فى الرعية، مجاهدًا فى سبيل الله، لنشر دين الإسلام.

يا بنى، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فإنهم لا يأمرون إلا بخير.

---

(١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، ص (١٦).

(٢) انظر: جوانب مضيئة، ص (٢١).

يا بنى، إياك أن تفعل أمرًا لا يرضى الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك على الخير.

واعلم يا بنى أن طريقنا الوحيد فى هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولادنيا)[١].

وفى التاريخ العثمانى المصور، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: (وصيتى لأبنائى وأصدقائى، أديموا علو الدين الإسلامى الجليل بإدامة الجهاد فى سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة فى الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائمًا؛ لأن الله عز وجل قد وظف عبدًا ضعيفًا مثلى لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم فى سبيل الله، ومن انحرف من سلالتى عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم الحشر.

يا بنى: ليس فى الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت، وقد اقترب أجلى بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى عز وجل. اعدل فى جميع شئونك. . .)[٢].

لقد كانت هذه الوصية منهجًا سار عليه العثمانيون، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش، وبالمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذى أوصل فتوحًا إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم، وبالإمارة وبالحضارة)[٣].

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التى قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية:

١ - (يا بنى، إياك أن تشتغل بشىء لم يأمر به الله رب العالمين):

إنها دعوة إلى الالتزام بشرع الله فى كل صغيرة وكبيرة، وبحيث يكون حكم الله وأمره مهيمنًا على كل شىء، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

---

(١) انظر: جوانب مضيئة، ص (٣).

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٣٣).

(٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٢٦).

يعنى: (ما الحكم الحق فى الربوبية والعقائد والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه،فهذه القاعدة هى أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة)[1]. لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله[2].

إن عثمان يوصى ابنه كحاكم من بعده لدولة إسلامية أن يتقيد بحكم الله فى أعماله، لأنه يعلم أن إقامة حكم الله من خلال الحاكم المسلم عهد وميثاق ذكره الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧] فهذا تذكير من الله تعالى لعباده المؤمنين بنعمته عليهم فى الشرع الذى شرعه لهم فى هذا الدين العظيم، المرسل به الرسول الكريم، وأخذ للعهد والميثاق عليهم فى متابعته ونصرته وإبلاغه والقيام به، وهذا مقتضى البيعة التى كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ففى الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغى حكم غيره، والآية تعبير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحى[3].

إن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التى من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. أى ليطيعوه وحده لا شريك له[4]. وإن المفهوم الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق

(١) تفسير المنار، (١٢/ ٣٠٩).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى، (١/ ٤٣٣).

(٣) تفسير أبى السعود، (٢/ ٧١).

(٤) تفسير ابن كثير، (٤/ ٢٣٩).

وأعمالاً كثيرة، منها ما يمكن أن يقيمه الأفراد، ومنها ما لا يمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا فى ظل دولة الإسـلام، وهذه المعانى الرفيـعة كانت واضـحة فى ذهن المؤسس الأول للدولة العثمانية، ولذلك وصى الأمير أورخـان بهذه العبارة المنهجية المسددة (يا بنى، إياك أن تشـتغل بشىء لم يأمر به الله رب العالمين) وهذا التـوجيه من عثمان لابنه كفرد وكرئيس لدولة وفى طياته معنى كون العبادة لها أصلان:

أحدهـما: أن لا يُعبـد إلا الله، والثاني: أن يُعبد بما أمـر وشرع[١]. فإنه مما لا شك فيه كانت الدولة العثمانيـة حريصة على حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك فى داخلها، وعـملت على تقليص نفوذه خارجهـا، وكانت حريصة علـى حماية الشرع ضد من يعاود الاعتداء عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل، وكل ذلك من حرص أمـيرها والعلمـاء الذين من حوله على تحقـيق العبـودية لله على الوجه المرضى، وعلى حماية الدين من دخائل وانتحالات المضلين، وبهذا تكون دولة بنى عثمـان أخذت الصبغة الشرعـية. (لقد كانت نشأتهـا إسلامية، خالصة، مـشبوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية)[٢].

٢- (إذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً):

إن الله تعالى قد شرع نظام الشـورى لِحِكَم بالغة، ومقاصد عظيمـة، ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التى تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة، ولذلك أمر عثمـان الأول ابنه أن يجعل من العلماء مجلس شورى له فى معضلات الأمور، وفى هذا الإرشاد امتثال لأمر الله واقتداء برسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

قال الأسـتاذ سـيد قطب -رحـمه الله-: (وبهذا الـنص الجازم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم- حـتى ومحمد رسول الله ﷺهو

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/ ١٧٣).

(٢) المسألة الشرقية، محمود ثابت الشاذلى، ص (٥٤).

الذى يتــولاه، وهو نص قاطع لا يــدع للأمة المسلمــة شكاً فى أن الشــورى مبــدأ أساسى لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه)[1].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

يقول الأستاذ عبد القادر عودة -رحمه الله-: (الشورى من دعائم الإيمان وصفة من الصفــات المميزة للمسلمين، ســوَّى الله بينها وبين الصلاة والإنفــاق فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، فجعل للاستجابة لله نتــائج بين لنا أبرزها، وأظهرها، وهى إقامة الصلاة والشورى والإنفاق، وإذا كانت الشورى من الإيمان فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى، ولا يحسن إســلامهم إذا لم يقيمــوا الشورى إقامة صــحيحة، ومــا دامت الشورى صفة لازمة للمــسلم لا يكمل إيمانه إلا بتوافرها، فهى إذن فريضة إسلامــية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فــعلى الحاكم أن يستشــير فى كل أمور الحكم والإدارة والسياســة، والتشريع، وكل ما يتــعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة الــعامة، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه فى هذه المسائــل كلها، سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم)[2].

والأحاديث القوليــة والسنة الفعلية الدّالة على وجود الشورى كثــيرة ونكتفى بما ذكرنا خوفًا من الإطالة.

وفى رواية أن عثمان أمــر ابنه بأن ينزل على رأى العلماء فى قوله: (وانزل على مشــورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخــير..)[3] وكأن عــثمان -رحــمه الله- يرى أن الشورى ملزمة للحاكم، وقد ذهب إلى هذا الرأى مجــموعة من العلماء المعاصرين منهم العلامة أبو الأعلى المودودى -رحمه الله-: (وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتــمية تشــاور قادة الدولة وحاكــمها مع المسلمين والنــزول على رضاهم ورأيهم،

---

(١) فى ظلال القرآن الكريم، (٤/ ١٠٥).

(٢) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص (١٩٣).

(٣) انظر: جوانب مضيئة، ص (٢١).

وإمضاء نظام الحكم بالشورى. يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩][1].

(إن قاعدة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ تتطلب بذاتها خمسة أمور: . . . خامسها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثريتهم، أما أن يستمع ولى الأمر إلى آراء جميع ما عليه أهل الشورى ثم يختار هو بنفسه بحرية تامة، فإن الشورى فى هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها، فالله لم يقل: (تؤخذ آراؤهم ومشورتهم فى أمرهم) وإنما قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يعنى أن تسير بتشاور فيما بينهم، وتطبيق هذا القول الإلهى لا يتم بأخذ الرأى فقط، وإنما من الضرورى لتنفيذه وتطبيقه أن تجرى الأمور وفق ما يتقرر بالأجماع أو الأكثرية. .)[2].

وهكذا نرى الأمير عثمان يسبق كثيراً من العلماء والمفكرين المعاصرين فى ذهابه إلى أن الشورى ملزمة ويأمر ابنه بالنزول عند رأى العلماء لكونهم لا يأمرون إلا بخير.

لقد ساهمت الشورى فى بناء الدولة العثمانية وتماسك رعاياها وعززت السلطان السياسى والجهادى والدعوى للدولة، وكانت الآراء تتقلب وفقًا لجدارتها، وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة، لقد كان الحكام العثمانيون يريدون لحكمهم أن يستمر ولنظام دولتهم أن يستقر، ولذلك حرصوا على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلادهم وجعلوا من الشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ولقد تطورت الشورى فى الدولة العثمانية؛ بل أصبح لكل إقليم حاكم يطلق عليه باشا، وله مجلس الديوان يتشاورون فى شئون الحكم والرعية، ولقد شكلت مجالس وعين نواب وممثلون لكل جماعة، وأتيحت الفرصة للاختيار وتطور الأمر حتى وصل فى عهد السلطان محمد الفاتح إلى تشكيل مجلس استشارى لأمور الدولة.

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها كانت فى زمن الدولة العثمانية عرضة للاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فى إدارة

---

(١) الخلافة والملك، ص (٤١، ٤٢).

(٢) انظر الحكومة الإسلامية، ص (٩٤).

شئـون الدولة فكان بالنسبة لهم من قـبيل المحكم الثابت الذى لا يجـوز تجاهله أو إهمـاله، وإن كان تاريخ الـدولة العثـمـانية لا يخلو من ظـهور بعض السـلاطين المتسلطين.

٣- (يا بنى، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم):

كان عثمان على صلة متينة مع كبار العلماء والفقهاء وكـبار الصالحين فى عهده، وكثيرًا مـا يجلس الساعات الطوال بين أيديهم، يتلقى مواعظهم ويستـفيد من علمهم ويشاورهم فى أمور الدولة، وكان يتـردد على المولى الشيخ (إده بالى) القرمانى المولد وقد زوجـه ابنته بسبب رؤيا: (كان فى أحـد الأيام يبيت عنده، فرأى فى المنام قـمرًا خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه، وعند ذلك نبتت شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتـها جبال عظيمـة تتفجر منهـا الأنهار، والناس ينتفعـون بتلك الأشجار لأنفسهم ودوابهم وبسـاتينهم، فقص هذه الرؤيا على الشيخ فقـال: لك البشرى، بما نلت مـرتبـة السلطنة، وينتـفع بك وبأولادك المسلمـون، وإنى زوجـت لك ابنتى هذه..[1]. لقد حاول بعض الكتاب أن يجعل من تلك الرؤيا أسـطورة لا حقيقة لها مع أن هذه الرؤيا ذكرت فى كـتاب مهم اسـمه الشقـائق النعمانيـة فى علماء الدولة العثمانية، وهذا الكتاب أفاد وأجاد فى ذكر علماء وفقهاء الدولة لفترات زمنية ممتدة.

إن هذه الرؤيا لا تخالف الـعقل ولا النقل، لأن عثـمان الأول رحمـه الله كان رجلاً تقـياً ورعًا، ومن ثمار التـقوى الرؤيا الصالحـة وثناء الخلق ومحبتـهم، قال تعالى:﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

والبشرى فى الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين، فى غير مكان من كتابه، وعن النبى ﷺ: «الرؤيا الصـالحة من الله..» [2] وعنه عليـه الصلاة والسـلام:«لم يبق من النبوة إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال:«الرؤيا الصالحة» [3]، وعن أبى ذر

---

(١) الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العـثمانية، تأليف طاش كبرى زاده، ص (٧)، نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية.

(٢) البخارى، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (٨/ ٨٨) رقم (٦٩٨٦).

(٣) البخارى، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (٨/ ٨٩) رقم (٦٩٩٠).

قال: قلت لرسـول الله ﷺ : الرجل يعمل العـمل لله ويحبه الناس فـقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» (١).

إن عثـمان الأول -رحمـه الله- وضع الله له محـبة فى قلوب المسلمين لجـهاده وتقواه وصلاحه.

إن وصية عثـمان لابنه باحترام العلماء أصبحت منهـجًا سار عليه حكام الدولة العثمانيـة، وهذا يدل على التزام العثمانيين بشرع الله تعـالى؛ لأن الشريعة أعطت اعتبارًا للعلماء وبنته على أمرين:

- أن طاعتهم طاعة لله -عز وجل- ولرسوله ﷺ فالتزام أمرهم واجب.

- أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها؛ بل هى تبعٌ لطاعة الله ورسوله ﷺ .

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء فى الشريعة كثيرة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد اخـتلف المفسـرون فى أولى الأمر منكم على أقـوال فقيل: هـم السلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

قال ابـن عباس رضـى الله عنها: «يعنى أهل الفـقه والدين، وأهل طـاعة الله الذين يعلِّمـون الناس معانى دينهم، ويأمـرونهم بالمعروف، وينهـونهم عن المنكر، فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده»(٢).

(والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمـروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبعٌ لطاعة العلمـاء، فإن الطاعـة إنما تكون فى المعروف ومـا أوجبـه العلم، فكما أن طـاعة العلماء تـبع لطاعة الرسول، فطاعـة الأمراء تبع لطاعـة العلماء، فـإن الطاعة إنما تكون فى المعـروف وما أوجبـه العلم، ولما كـان قيام الإسـلام بطائفتين، العـلماء

---

(١) مسلم، كتاب الرؤيا، باب (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) تفسير الطبرى (٥/ ١٤٩).

والأمراء، وكـان الناس لهم تبـعًا، كـان صلاح العـالم بصلاح هاتين الطائفـتين، وفساده بفسادهما)[1].

والدليل الثانى: أن الله -سبحانه- أوجب الرجوع إليـهم وسؤالهم عما أشكل: قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

(وعموم هذه الآية، فـيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعـه، العلم بالكتاب المنزَّل، فـإن الله أمر من لا يعلم بالرجـوع إليهم فى جـميع الحوادث، فى ضـمنه تعديل لأهل العلم وتزكـية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بـذلك يخرج الجاهل من التبعة. .)[2].

إن الآيات والأحاديث التى تبين دور العلماء كثيرة ونكتفى بما ذكرنا.

لقد كان العلمـاء فى مسيرة الدولة العثـمانية مرجعًـا للسلاطين عند الفتن والملاحم والمحن، وكانت لهم مـقدرة عظيمة على حـشد الناس تحت لواء الجهاد فى سـبيل الله تعالى، وإقـامة شرعه على الـرعية، وكانوا لا يسـمحون للسلطان أن يتـجاوز أحكام الشرع وإلا ربما هيجوا عليه الناس وعزلوه، وكانت أحكام العلماء والفقهاء تستنبط من:

١- القرآن الكريم:

قـال تعـالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَـابَ بِالْحَقِّ لِتَـحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَـا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] فهو المصدر الأول الذى يشتـمل على جميع الأحكام الشرعية التى تتعلق بشئون الحيـاة البشرية، كما يتضمن مبادئ أساسيـة وأحكامًا قاطعة لإصلاح كل شعبة من شـعب الحياة كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يـحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

٢- السنة المطهرة:

هى المصـدر الثانى الذى يسـتمد منه الـعلماء الأحكام، ومن خـلالها يعـرفون الصيغ التنفـيذية والتطبيقيـة لأحكام القرآن ممثلة فى قيـادة الرسول ﷺ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالى الذى ينشده الإسلام.

---

(١) أعلام الموقعين (١/ ١٠) بتحقيق عبد الرؤوف سعد.

(٢) تفسير السعدى (٤/ ٢٠٦).

٣- إجماع الأمة:

وخاصة الصحابة، وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

٤- مذهب العلماء والمجتهدين:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عُدم النص والإجماع[١]، ولأن العلماء فى أمة محمد (كالأنبياء فى بنى إسرائيل، فهم المؤتمنون على نقل العلم، والمفوضون فى استنباط الأحكام المتجددة فى عمومات الشريعة، لا لعصمة اختصوا بها -فليس فى الإسلام كهنوت- ولكن لأهليتهم فى أن يُسموا «أهل الذكر» والله تعالى يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

لقد كان علماء الدولة العثمانية على فهم عميق لروح الشريعة وقواعدها، ولهم المقدرة على معالجة ما يستجد من قضايا فى ضوء هذا الفهم، وكانت لهم القدرة على فهم ضبط المناط فى الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها.

ولقد كان المذهب الحنفى له القدح المعلى عند علماء الدولة، وإن كانوا لا يستغنون عن بقية المذاهب السنية التى كانت لها احترامها عند السلاطين العثمانيين.

لقد حرص علماء الدولة العثمانية على أن يقوم نظامها السياسى على عقيدة التوحيد، وتطبيق شريعة الله، وعلى الشورى، وأن يقوم نظامها الاقتصادى على التعامل بالذهب والفضة، وعدم التعامل بالربا، وعدم الاستغلال والاحتكار، وعدم الاتجار بما حرم الله، وأن يقوم نظامها السلوكى والأخلاقى الاجتماعى على أساس عقيدة الإسلام، وأن يقوم نظامها التعليمى والإعلامى على قاعدة من العلوم الشرعية، وأن تقوم علاقاتها الدولية على أساس عقيدة الإسلام التى وضعها الله

---

(١) انظر: تفسير القرطبى (٥/ ٢٩٢).

سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

لقد كان العلماء والفقهاء فى الدولة العثمانية يشرفون على تطبيق شرع الله، وإقامة الحدود، وتحريم ما حرم الله، ولا تستحل ما حرم الله[١].

لقد كان معظم سلاطين الدولة يحترمون العلماء ويجلونهم.

٤- (اعلم يا بنى، أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة فى عنقك سيسألك الله عز وجل عنها)[٢]:

لقد فهم عثمان الأول -رحمه الله- أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة، لا تتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض، وأن من أهداف الدولة الإسلامية دفع عجلة الدعوة إلى الأمام ليصل نور الإسلام إلى كل إنسان. إن الدولة العثمانية كانت ترى من مسئولياتها القيام بوظيفة الدعوة ونشرها فى أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقدية، قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية، وذلك كما كان يفعل رسول الله ﷺ، كان يقوم بتبليغ الدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد امتثل عليه الصلاة والسلام للأمر وأرسل إلى ملوك الأرض، فكتب إلى ملوك الروم، فقيل له: إنهم لايقرءون كتابًا إلا إذا كان مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث كتبًا ورسلاً إلى ملوك فارس والروم، والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة فى يوم واحد، ثم بعث إلى حكام عمان والبحرين واليمن وغيرهم[٣].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى، ص (٤).

(٢) انظر: جوانب مضيئة، ص (٢١)..

(٣) انظر: زاد المعاد (١/ ١١٩- ١٢٤).

ولذلك اقتدى عثمان -رحمه الله- بالنبى ﷺ فى دعوته، وسار أبناؤه من بعده على هذا المنهج، وظهرت فى الدولة جماعة الدعوة وكان الحكام والسلاطين يقفون معها ويدعمونها ماديًا ومعنويًا، ولقد سلك العثمانيون -دولة وشعبًا- سبلاً متعددة من أجل إدخال النصارى فى الإسلام ومن هذه الطرق:

- الاحتفال بمن يعلن اعتناقه للإسلام وإمداده بكل ما يعينه على الحياة والابتهال به فى المساجد.

- حرص العثمانيون على التمسك بالدين، والتواضع فى أداء الشعائر مما جعل بعض المسيحيين يدخلون فى الإسلام.

- معاملة الرقيق من المسيحيين باللين حيث كانوا يعتقونهم إذا ثبت إخلاصهم، حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد العتق، فضلاً عن حسن معاملة من يسلم منهم أو يظل على دينه مما كان دافعًا لكثير منهم على اعتناق الإسلام[1].

- أقبل كثير من العثمانيين على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها مما حدا ببعضهن إلى اتباع أزواجهن.

- من دخل فى الإسلام من النصارى بدعوة أقاربهم وذويهم لما رأوا من سماحة الإسلام وانسجامه مع الفطرة، ومخاطبته للعقل، وإحيائه للقلب.

- قامت الدولة العثمانية بنقل قبائل إسلامية تابعة لها إلى قرى مسيحية ونقلت أعدادًا من النصارى إلى تجمعات إسلامية مما ساعد على انتشار الإسلام تدريجيًا.

- قام السلطان مراد باتباع سياسة الإفراج عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الإسلام وأسهم ذلك الأسلوب فى زيادة عدد المسلمين.

- ومما ساعد على انتشار الإسلام في البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين فى فرض الضرائب الباهظة وأن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة، وسعوا فى توثيق علاقاتهم بالنظام العثمانى؛ بل بعضهم دخل فى الإسلام.

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، د. زكريا بيومى، ص (٥١ - ٥٣).

- توسع سلاطين العثمانيين فى المنح والعطايا والتقدير لزعماء النصارى الذين أقبلوا على الإسلام، وأظهر كثيرون منهم الإخلاص للدولة العثمانية[1].

لقد اهتم العثمانيون بأمر الدعوة إلى الله على المستوى الخارجى، وإدخال الناس فى دين الإسلام، ولم يتركوا أمر الإصلاح الداخلى فى الدولة وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

لقد بين عثمان الأول -رحمه الله- أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة فى عنق الحاكم المسلم، وهذه الأمور تدخل تحت عبادة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة إلى مكارم الأخلاق وتعليم الأمة أمر دينها، ويكون ذلك بإشراف الحاكم المسلم، فيترتب على تلك الأمور فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد، والحكام والمحكومين، ومن أهم هذه الفوائد:

- إقامة الملة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هى العليا.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج: ٤٠].

إن الإنسان لابد له من أمر ونهى ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعُ إليه أمر بالشر[2].

- رفع العقوبات العامة: قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال أيضًا فى الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالكفر والمعاصى بأنواعها سبب للمصائب والمهالك، قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. «وهذه إشارة تكشف عن سنة من سنن الله فى الأمم، فإن الأمة التى يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هى أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير»[3].

---

(١) انظر: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين.

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، خالد السبت، ص (٧٢).

(٣) فى ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٣).

- استنزال الرحمة من الله تعالى؛ لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نوع من العبودية لله.

- تحقيق وصف الخيرية فى هذه الأمة:

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- التجافى عن صفات المنافقين:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

٥- (يا بنى، أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود) [١].

إن أمة الإسلام تحتاج لكى تقوم بمهمتها فى هداية الناس للخير إلى أن تكون صالحة فى نفسها، مصلحة لغيرها، فهى الشهيدة على الأمم لأنهم أمة الوسط.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهناك حقوق متبادلة بين الراعى والرعية، والحاكم والمحكوم، ومن وصية عثمان -رحمه الله- لابنه يبين له حق الرعية على الحاكم، ولقد حرص العثمانيون كحكام على تنفيذ حقوق الرعية، ومن أهم هذه الحقوق التى قاموا بها:

١- العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.

٢- بذل الأسباب المؤدية إلى وحدة الأمة.

٣- العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج.

٤- أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.

٥- إعداد الأمة إعدادًا جهاديًا.

---

(١) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٦).

٦- حفظ ما وضعت الشريعة لأجله.

٧- تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء وصرفها في مصارفها الشرعية.

٨- تحرى الأمانة في اختيار أرباب المناصب.

٩- إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

١٠- الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الإدارية التي تتعلق بما يصلح أحوالهم(١).

ومن واجبات الرعية تجاه الحكام:

١- الطاعة:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ**﴾ [النساء: ٥٩].

كان المجتمع العثمانى شديد السمع والطاعة لحكامه ما داموا ملتزمين بالشريعة؛ لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيدة دائمًا بطاعة الله ورسوله، كما قال ﷺ «**لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف**»(٢).

٢- النصرة:

كان المجتمع العثمانى دائمًا يلتف حول حكامه الشرعيين ويلبى دعوة الجهاد ويبذل الغالى والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعالى، قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٢].

وكان من مفاهيم المجتمع العثمانى السائدة عندهم؛ من نصرة الحاكم ألا يهان، ومن معاضدته أن يحترم، وأن يكرم، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكرامًا لشرع الله سبحانه الذى ينافح ويدافع عنه. يقول رسول الله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط**»(٣).

---

(١) انظر: الحاكم والمحكوم فى خطاب الوحى (٢/ ٣١٥ - ٣٢٣).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب من فرق أمر المسلمين (٣/ ١٤٨٠) رقم (١٨٥٢).

(٣) أبو داود، كتاب الأدب تنزيل الناس منازلهم، رقم الحديث رقم (٤٨٢٢).

٣- النصح:

إن المجتمع العثمانى كان يناصح ولاة أمره، ويرى ذلك من صميم الدين لقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة -ثلاثًا- قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: لله -عز وجل- ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

٤- التقويم:

لقد استقر فى مفهوم المجتمع العثمانى أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن استقامة ولاتها، ولذلك نجد فى التاريخ العثمانى صورًا مشرقة فى تقويم الحكام وإرشادهم ونصحهم، فهذا المولى علاء الدين على بن أحمد الجمالى المتوفى سنة ٩٣٢هـ، فقد كان عالمًا عاملاً يمضى وقته فى التلاوة والعبادة والدرس والفتوى، محافظًا على الصلوات الخمس مع الجماعة، وكان كريم النفس، طيب الأخلاق، عظيم المهابة، صدّاعًا بالحق، عفيف اللسان لا يذكر أحدًا بسوء، ولعلاء الدين احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفى عام ٩٢٦هـ ومن ذلك: أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفيه، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب إلى الديوان، ولم تكن عادته الحضور إلى السلطان إلا لأمر عظيم، فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتى عليهم، فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه فى صدر المجلس وقالوا له: أى شىء دعا المولى إلى المجىء إلى الديوان العالى؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان ولى معه كلام، فاستأذنوا له على السلطان، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس، وقال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعًا، فغضب السلطان وكان صاحب حدة، وقال له: لا تتعرض لأمر السلطان وليس ذلك من وظيفتك، فقال الشيخ: بل أعترض لأمر لآخرتك، وإنه من وظيفتى، ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله، وواقف بين يديه للحساب، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فإن أمامك جهنم وعليك عقاب عظيم، ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك، فما كان من السلطان إلا الإذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب، وخضع

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (١/ ٧٤) رقم (٥٥).

للحق، وعفـا عنهم جميعًـا، ثم إن المحتسب لم يكتف بذلك؛ بل طالبـه أن يعيد الجميع إلى وظائفهم ففعل. رحم الله المولى علاء الدين الذى كان عظيمًا باحتسابه جريئًـا فى الحق لا يخشى فـيه لومة لائم. ولقـد تأثر السلطان سليم بهـذا العالم وأرسل إليه بعـد ذلك وطلب منه أن يكون قاضى العـسكر وقال له: جـمعت لك بين الطرفـين لأنى تحـققت أنك تتكـلم بالحق، فكتب إليـه: وصل إلىَّ كتـابك، سلمك الله تعالى وأبـقاك، وأمرتنى بالقـضاء وإنى أمتـثل أمرك إلا أن لى مع الله تعالى عهدًا أن لا تصدر عنى لفظة حكمت، فأحبه السلطان محبة عظيمة[1].

وهكذا سار العثمانيون على المنهج الذى وضعه لهم المؤسس الأول.

٦- (ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك)[2]:

وهذا المعانى يعـيشها من فـهم القرآن الكريم وتأثر به، وتأمل فى سيـر الأنبياء والمرسلين والمصلحين، لأنه يعلم أن التوفيق من الله تعالى وليس بالجند ولا بالمال، وهكذا كان مـوقف يوسف عليه السلام، قـال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وهكذا يناجى يوسف عليه السلام ربه؛ فـيقـول: أصبـحت ممكنًا فى الأرض تشـد إلىَّ الرحـال، وتنصاع لكلمـتى الرجال، ورزقتنى الفهم وصواب تأويل الرؤى، وتفسير الأحاديث، ويرجع الفضل إلى صاحب المن والفضل، يقول ابن القيم: «جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهـار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيـره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء»[3].

وهذا ذو القرنين عندما تم بناء سدِّه العظيم، وكان يملك الجنود والمال ويتحكم فى الشعوب بـالعدل قال: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]، إنها عبارة جميلة مباركة تشير إلى عدة معانٍ:

---

(١) انظر: شذرات الذهب (٨/ ١٨٥).

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٦)..

(٣) الفوائد لابن القيم، ص (٢١).

١- قال سيد قطب: (ونظر ذو القرنين إلى العمل العظيم الذى قام به؛ فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه. . .)[1].

٢- إن من أعظم صور الذكر أن يتذكر العبد فضل الله عليه، فيستشعر أن فضل الله عليه عظيم؛ فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

وهكذا كانت وصية عثمان لابنه يحذره فيه من الشيطان ومسالكه ومداخله ويدعوه إلى الاحتراز من كيده.

٧- (وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله)[2]:

إن عثمان الأول -رحمه الله تعالى- كان يرى أن نشر دين الله فى كل الآفاق من وسائله الجهاد فى سبيل الله تعالى، وأن الغاية العليا للجهاد فى سبيل الله هى إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

ومفهوم العبادة شامل لنشاط الإسلام كله، ويفسر ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ومن أجل هذه الغاية انطلق عثمان الأول بجنوده وشعبه مجاهدًا فى سبيل الله ولسان حاله يقول: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لقد كانت وسيلة العثمانيين من أجل إقامة حكم الله ونظام الإسلام فى الأرض: الجهاد فى سبيل الله.

وعندما حاولت دول النصارى أن تعمل على منع توسع الدولة العثمانية وباشروا فى شن هجومهم عليها كانت وسيلة الجهاد كالصخرة العظيمة التى تتحطم عليها محاولاتهم المتكررة وأمام قادة العثمانيين قول الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١) الظلال (٤/ ٢٢٩٣).

(٢) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٦).

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩١].

لقد عمل العثمانيون بهذه النصيحة والوصية، فعملوا على إزالة كل العوائق التى تمنع الناس من سماع دعوة الله تعالى التى جاءت لتعطى الناس أكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطويرها.

ولقد جاهدت الدولة العثمانية فى سبيل الله تعالى، وفتح الله على يديها دولاً وشعوبًا ما زال الإسلام باقيًا فيها حتى الآن مثل دول البلقان، وعملت على حماية شعوب المسلمين من هجمات النصارى الغاشمة، فكانت سببًا فى بقاء الشمال الأفريقى على إسلامه ودينه وعقيدته، وكانت عاملاً مهمّاً فى حماية الأراضى المقدسة من البرتغاليين ومن دخل تحت لوائهم من النصارى إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة التى سنفصلها فى بحثنا هذا بإذن الله تعالى.

٨- (من انحرف من سلالتى عن الحق والعدل حُرم من شفاعة الرسول ﷺ الأعظم يوم المحشر)[١].

إن عثمان -رحمه الله تعالى- يتبرأ ممن ينحرف عن الحق والعدل من ذريته، ويدعو من جاء بعده بالتمسك بالحق وإقامة العدل.

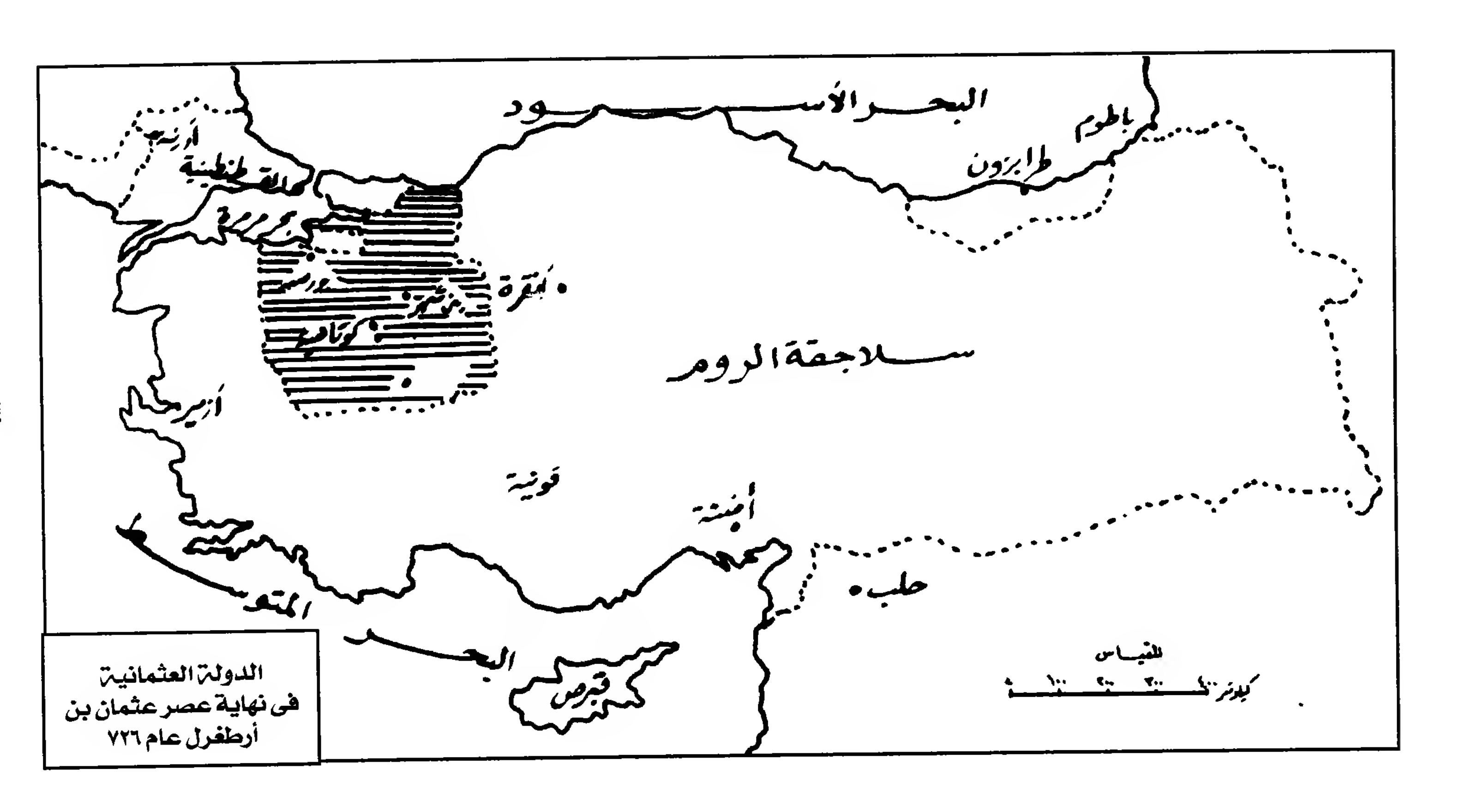
إن العدل هو الدعامة الرئيسية فى إقامة المجتمع الإسلامى والحكم الربانى؛ فلا وجود للإسلام فى مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل، ولذلك اهتم الإسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها؛ فأكثر الحديث عنها فى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ومن هذه النصوص:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وأمر الله بفعلٍ -كما هو معلوم- يقتضى وجوبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) السلاطين العثمانيون، ص (٣٣).



الدولة العثمانية
فى نهاية عصر عثمان بن
أرطغرل عام ٧٢٦

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

ثم إن ترك العدل يعد ظلمًا، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك فى الدنيا[١]، قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ومن خلال هذه التوجيهات الربانية حرص عثمان على إقامة العدل بين الناس وعمل أن يكون هذا المبدأ واقعًا تعيشه الأمة العثمانية من بعده حيث كان يتحرك بجيوشه ويوظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس بخالقهم، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان. وكان دستوره فى التعامل مع الناس قول الله تعالى: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

ولذلك حرص فى وصيته على أن يحكم من بعده بالحق والعدل وفى رواية يقول لابنه فى الوصية: (اعدل فى جميع شئونك...)[٢].

٩- (يا بنى، لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت)[٣].

إن هذه الفقرة من الوصية تبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية عن غيرها من الدول، فالغاية التى قامت من أجلها إنما هى الدفاع عن الإسلام ورفع رايته فى مشارق آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التى كانت تهدد المسلمين فى ديارهم، ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب الغازى، أى المجاهد فى سبيل الله. وكان يتلقى هذا اللقب فى حفل مشهود بتسليمه راية الجهاد من عالم

(١) انظر: النظام السياسى فى الإسلام، د. محمد أبو فارس، ص (٤٩).

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٣٣).

(٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٦).

كبير،[1] وأن الغازى عثمان -رحمه الله- دعـا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد فـى سبيل الله فاستـجاب له الكثير من المؤمنين الصـابرين تحدوهم جميعًا رغبة شديدة فى الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية[2].

هذه الوصيـة الخالدة هى التى سـار عليهـا الحكام العثـمانيون فى زمـن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم.

ترك عثمـان الأول الدولة العثمانية وكانـت مساحتها تبلغ ١٦,٠٠٠ كليـو متر مربع، واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذًا على بحر مرمرة، واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين فى ذلك الزمان وهى: أزنيق وبورصة[3].

***

(١) انظر: المسألة الشرقية، ص (٣٩).

(٢) انظر: تركيا والسياسة العربية، ص (١٣).

(٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٥).

المبحث الثانى

السلطان أورخان بن عثمان

٧٢٦ - ٧٦١هـ/ ١٣٢٧ - ١٣٦٠م

بعد وفاة عثمان تولى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده فى الحكم والفتوحات، وفى عام ٧٢٧هـ الموافق ١٣٢٧م سقطت فى يده نيقوميديا، وتقع فى شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة اسطانبول وهى مدينة أزميت الحالية، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصرى، أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا فى مصر[١]. واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية وجعله جيشًا نظاميًا[٢].

وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ فى فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق فى آن واحد، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولى عهده «سليمان» لعبور مضيق «الدردنيل» والاستيلاء على بعض المواقع فى الناحية الغربية.

وفى عام (٧٥٨هـ) اجتاز سليمان مضيق «الدردنيل» ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام، ولما أدركوا الضفة الغربية، استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذا لم يكن للعثمانيين إسطول حينذاك حيث لاتزال دولتهم فى بداية تأسيسها، وفى الضفة الشرقية أمر «سليمان» جنوده، أن يركبوا فى الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوروبى حيث فتحوا ميناء قلعة «ترنب»، «وغاليبولى» التى فيها قلعة «جنا قلعة» و«أبسالا» و«رودستو» وكلها تقع على مضيق «الدردنيل» من الجنوب إلى الشمال، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده فى فتح «القسطنطينية»[٣].

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص (٢٩).

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٧).

(٣) انظر: الدولة العثمانية، الدكتور جمال عبد الهادى، ص (٢٢).

أولاً: تأسيس الجيش الجديد:

إن من أهم الأعمال التى ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامى، وحرصه على إدخال نظام خاص للجيش، فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش، وجعله جيشًا دائمًا بعد أن كان لا يجتمع إلا فى وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها[١].

كما أنه أضاف جيشًا آخر عرف بالانكشارية[٢]، شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتها الكبيرة فى حروبها مع أعدائها غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة فى الإسلام، ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين فى سبيل نشر الإسلام، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكريًا وحربيًا يعينون فى مراكز الجيش المختلفة، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد والذود عن الدين والشوق إلى نصرته أو الشهادة فى سبيله، وأصبح شعارهم (غازيًا أو شهيدًا) عندما يذهبون إلى ساحة الوغى[٣].

ولقد زعم معظم المؤرخين الأجانب أن جيش الانكشارية تكون من انتزاع أطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام، بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى بنظام (الدفشرية)، وزعموا أن هذا النظام كان يستند إلى ضريبة إسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم «ضريبة الغلمان» وأسموها أحيانًا «ضريبة الأبناء»، وهى ضريبة زعموا أنها تبيح للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية، باعتبارهم خمس الغنائم التى هى حصة بيت مال المسلمين، ومن هؤلاء المؤرخين الأجانب الذين افتروا على الحقيقة، كارل بروكلمان، وجيبونز، وجب[٤]، إن الحقيقة تقول: إن نظام الدثرمة المزعوم ليس

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص (٣٢).

(٢)، (٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٠٢).

(٤) انظر: جوانب مضيئة، ص (١٢٢).

سوى كذبة دُسَّت على تاريخ أورخـان بن عثمان ومراد بن أورخـان وانسحبت من بعدهما على العثـمانيين قاطبة، فلم يكن نظام الدثرمـة هذا إلا اهتمامًا من الدولة العثمانيـة بالمشردين من الأطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المسـتمرة أيتامًا أو مشردين، فـالإسلام الذى تدين الدولة العثمانـية به يرفض رفضًا قاطعًـا ما يسمى بضريبة الغلمان التى نسبها المغرضون من المؤرخين الأجانب إليها.

لقد كـانت أعداد هائـلة من الأطفال فـقدوا آباءهم وأمهـاتهم بسـبب الحروب والمعارك، فاندفع المسلمون العثمانيون إلى احتضان أولئك الأطفال الذين هاموا فى طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لآبائهم وأمهاتهم، وحرصوا على تأمين مستقبل كريم لهم، وهل من مسـتقبل كريم وأمين إلا فى الإسلام؟ أفـإن حرص المسلمون على أن يعتنق الأطـفال المشردون التـائهون الإسلام، انبـرى المفترون يزعـمون أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من أحضان آبائهم وأمهاتهم ويكرهونهم على الإسلام؟.

ومن المؤسف أن هذه الفرية الحـاقدة، وهذا الإفك المبين، وهذا البهـتان العظيم التقفه بعض المؤرخين المسلمين يدرسونه فى مـدارسهم وجامعاتهم وكأنه أمر مسلم به، ويطرح على الطلاب كـأنه حقـيقـة من الحقـائق، ولقد تأثر بكتب المؤرخـين الأجانب مجمـوعة من المؤرخين المسلمين، ومن هؤلاء من يشهـد له بالغيرة على الإسلام، فأصبحوا يرددون هذا البهتان فى كتبهم من أمثال المؤرخ محمد فريد بك المحامى فى كتـابه الدولة العلية العثمـانية، والدكتور على حسـون فى كتابه تاريخ الدولة العثمـانية، والمؤرخ محمد كرد فى كـتابه خطط الشام، والدكتور عـمر عبد العزيز فى كتابه مـحاضرات فى تاريخ الشعوب الإسلامية، والدكـتور عبد الكريم غرايبه فى كتاب العرب والأتراك.

الحقيـقة تقول: كل من ذكـر ضريبة الغلمان أو أخـذهم بالقوة من ذويهم تحت قانون أخذ خمـس أطفال المدن والقرى ليس له دليل إلا كتب المستشـرقين، كجب أو المؤرخ النصرانى سـوموفيل، أو بروكلمـان، وهؤلاء لا يطمئن إليهم فى كـتابة التاريخ الإسلامى ولا إلى نواياهم تجاه الإسلام وتاريخ الإسلام.

إن الذين يربون تربية خاصة على الجـهاد لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء آباء مسلمين انخلعوا عن النصـرانية، واهتدوا إلى الإسلام، وشرعـوا من أنفسهم وعن

طواعية لا عن إكراه، يقـدمون أبناءهم للسلطان ليستكمل تربيتهم تربيـة إسلامية، أما باقى الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أفرزتهم الحروب فاحتضنتهم الدولة العثمانية.

إن حقيقة الجيش الجديد الذى أنشأه أورخان بن عثمان هى تشكيل جيش نظامى يكون دائم الاستعداد والتواجد قريبًا منه فى حالة الحرب أو السلم على حد سواء، فشكله من فرسان عشيرته ومن مجـاهدى النفير الذين كانوا يسارعون لإجابة داعى الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام قلوبهم، وحسن إسلامهم. وما كـاد أورخان ينتهى مـن تنظيم هذا الجيش حتى سـارع إلى حيث يقـيم العالم المؤمن التقى الحاج بكتـاش وطلب منه أن يدعو لهم خيرًا، فـتلقاهم العالم المؤمن خير لـقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود، ودعا لهم الله أن يبـيض وجوههم، ويجعل سُيوفهم حـادة قاطعة، وأن ينصرهم فى كل معركة يخـوضونها فى سبيل الله، ثم مال تجـاه أورخان فسأله: هل اتخـذت لهذا الجيش اسمًـا..؟ قال: لا، قال: فليكن اسمه «ينى جرى» وتلفظ «ينى تشرى» أى الجيش الجديد.

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليها اسم «ذى الفقار» تيمنًا بسيف الإمام على رضى الله عنه[١].

لقد كـان علاء الدين بن عثمـان أخو أورخان صاحب الفكرة، وكـان عالمًا فى الشريعة ومشهورًا بالزهد والتصوف الصحيح[٢].

وعمل أورخـان على زيادة عدد جـيشـه الجديد بعد أن ازدادت تبـعات الجـهاد ومناجزة البيزنطيين، فاختار عددًا مـن شباب الأتراك، وعددًا من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فـضمهم إلى الجيش واهتم اهتمامًا كبـيرًا بتربيتهم تربية إسلامية جهادية.

ولـم يلبث الجيش الجـديد حتى تزايد عدده، وأصبح يضم آلافـًا من المجاهدين فى سبيل الله.

---

(١) انظر: جوانب مضيئة، ص (١٤٧).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (١٤٤).

لقد كان أورخان وعلاء الدين متفقين على أن الهدف الرئيسى لتشكيل الجيش الجديد، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها، والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا فى نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقوا تربية إسلامية جهادية وترسخت فى قلوبهم مبادئ الإسلام سلوكًا وجهادًا.

وخلاصة القول، أن السلطان أورخان، لم ينتزع غلامًا نصرانيّاً واحدًا من بيت أبيه، ولم يكره غلامًا نصرانيّاً واحدًا على اعتناق الإسلام، وأن كل ما زعمه بروكلمان وجب وجيبونز كذب واختلاق ينبغى أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلامى[1]. إن مقتضيات الأمانة العلمية والأخوة الإسلامية تضع فى عنق كل مسلم غيور، وخاصة العلماء والمثقفين والمفكرين والمؤرخين والمدرسين والباحثين والإعلاميين، أمانة نسف هذه الفرية ودحض هذه الشبهة التى ألصقت بالعثمانيين، وأصبحت كأنها حقيقة لا تقبل النقاش والمراجعة والحوار.

ثانيًا: سياسة أورخان الداخلية والخارجية:

كانت غزوات أورخان منصبة على الروم، ولكن حدث فى سنة (٧٣٦هـ - ١٣٣٦م) أن توفى أمير قره سى -وهى إحدى الإمارات التى قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم- واختلف ولداه من بعده وتنازعا الإمارة. واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخل فى النزاع وانتهى بالاستيلاء على الإمارة وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وترث ما كانت تملكه، واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه.

واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وتولى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شئون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية[2]، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام فى الدولة، وكانت كل قرية بها مدارسها، وكل مدينة بها كليتها التى تعلم النحو والتراكيب اللغوية

---

(١) جوانب مضيئة، ص (١٥٥).

(٢) انظر: محمد الفاتح، الدكتور سالم الرشيدى، ص (٢٥).

والمنطق والميتافزيقا وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوى والبلاغة والهندسة والفلك،[1] وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنة والفقه والعقائد.

وهكذا أمضى أورخــان بعد استيــلائه على إمارة قره سى عــشرين سنة دون أن يقوم بأى حــروب، بل قضــاها فى صقل النظم المدنيــة والعسكرية التى أوجـدتها الدولة، وفى تعزيز الأمن الداخلى، وبناء المســاجد ورصد الأوقاف عليهــا، وإقامة المنشآت العامة الشــاسعة، مما يشهد بعظمة أورخان وتقــواه، وحكمته وبُعد نظره، فإنه لم يشن الحرب تلو الحرب طمعًــا فى التوسع، وإنما حرص على تعزيز سلطانه فى الأراضى التى يتــاح له ضــمهــا، وحــرص على طبع كل أرض جـديدة بطابع الدولة المدنى والعــسكرى والتربوى والثــقافى، وبذلك تصــبح جزءًا لا يتــجزأ من أملاكهم، بحيث أصبحت أملاك الدولة فى آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة.

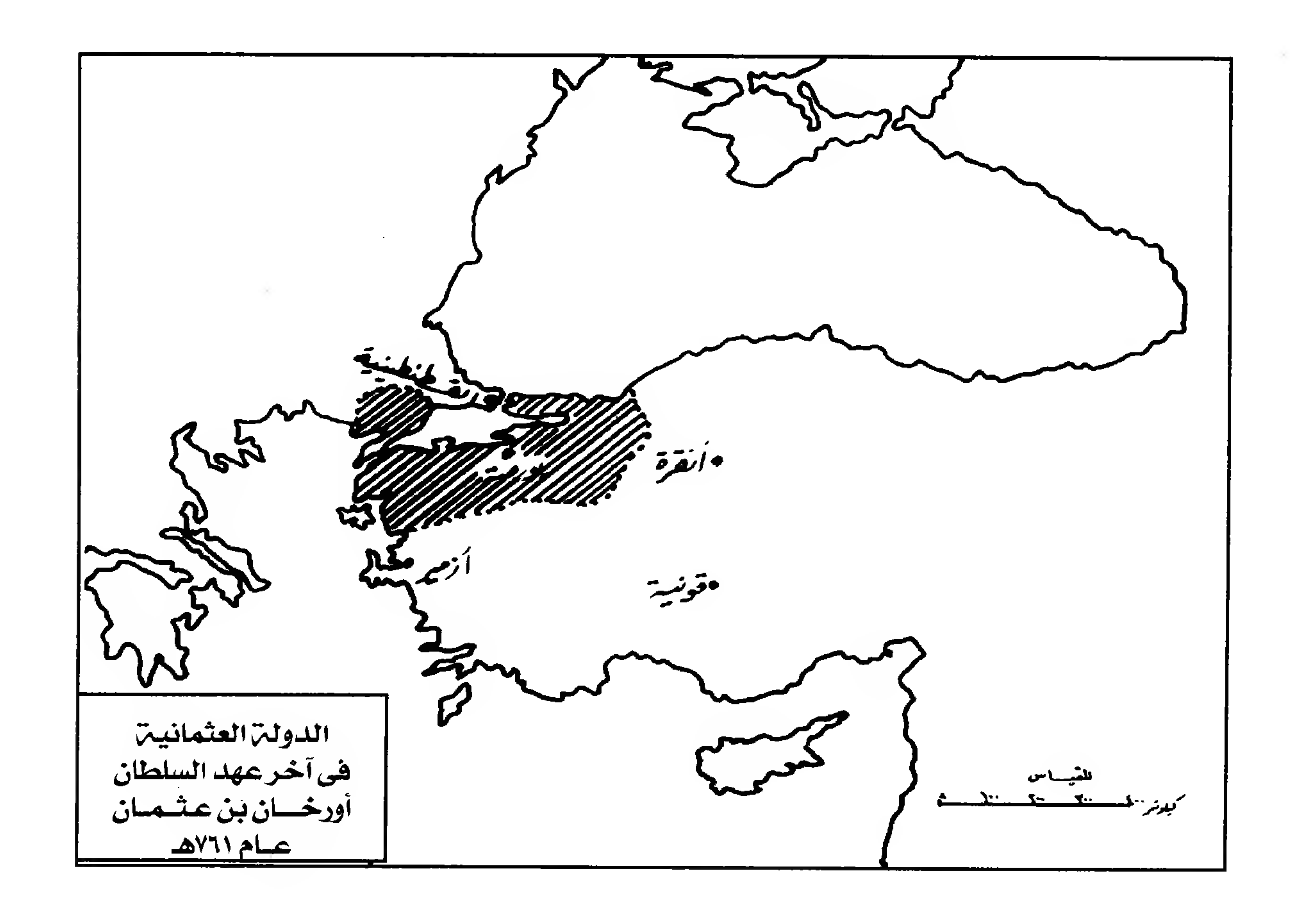
وهذا يدل على فــهم واستــيعــاب أورخان لسنة التــدرج فى بناء الدولة وإقــامة الحضارة، وإحياء الشعوب.

وما إن تمّ أورخــان البناء الداخلى حتى حدث صــراع على الحكم داخل الدولة البيــزنطية وطلب الأمــبراطور (كــونتاكــورينوس) مســاعدة السلطان أورخــان ضد خصمه، فأرسل قوات من العثمانيــين لتوطيد النفوذ العثمانى فى أوروبا. وفى عام ١٣٥٨م أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أســوار غاليبولى وهجرها أهلها مما سهل على العثمانيــين دخولها، وقد احتج الامبراطور الــبيزنطى على ذلك دون جدوى. وكان رد أورخان أن العناية الإلهــية قد فتحت أبواب المدينة أمام قــواته، وما لبثت غاليــبولى أن أصبــحت أول قاعدة عــثمانيــة فى أوروبا، ومنها انطلقت الحــملات الأولى التى توجهت فى النهاية بالاستيلاء على شــبه جزيرة البلقان.. وحين انفرد حنا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقر كل فــتوح أورخان فى أوروبا فى مقابل تعهــد السلطان بتســهيل وصول الطعــام والمؤن إلى القسطنطينيــة. وأرسل أورخان أعدادًا كبيــرة من القبائل المسلمة بغية الدعــوة إلى الإسلام ومنع تمكن النصارى من طرد العثمانيين من أوروبا[2].

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، محمد عبد الرحيم، ص (٤٠).

(٢) انظر: أصول التاريخ العثمانى، ص (٤٧).



الدولة العثمانية
فى آخر عهد السلطان
أورخان بن عثمان
عام ٧٦١هـ
القسطنطينية
أنقرة
قونية
أزمير

ثالثًا: العوامل التى ساعدت السلطان أورخان فى تحقيق أهدافه:

١- المرحلية التى سار عليها أورخان واستفادته من جهود والده عثمان ووجود الإمكانات المادية والمعنوية التى ساعدتهم على فتح الأراضى البيزنطية فى الأناضول وتدعيم سلطتهم فيها، ولقد تميزت جهود أورخان بالخطى الوئيدة والحاسمة فى توسيع دولته ومد حدودها، ولم ينتبه العالم المسيحى إلى خطورة الدولة العثمانية إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على غاليبولى(١).

٢- كان العثمانيون يتميزون فى المواجهة الحربية -التى تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية- بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الدينى وهو المذهب السنى.

٣- وصول الدولة البيزنطية إلى حالة من الإعياء الشديد، وكان المجتمع البيزنطى قد أصابه تفكك سياسى وانحلال دينى واجتماعى، فسهل على العثمانيين ضم أقاليم هذه الدولة.

٤- ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة فى الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر، ولذلك تعذر فى معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف فى جبهة واحدة ضد العثمانيين(٢).

٥- الخلاف الدينى بين روما والقسطنطينية أى بين الكاثوليكية والأرثوذكسية الذى استحكمت حلقاته وترك آثارًا عميقة الجذور فى نفوس الفريقين.

٦- ظهور النظام العسكرى الجديد على أسس عقدية، ومنهجية تربوية، وأهداف ربانية، وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين.

***

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٢٢).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣).

المبحث الثالث

السلطان مراد الأول

٧٦١ - ٧٩١هـ/ ١٣٦٠ - ١٣٨٩م

كان مراد الأول شجاعًا مجاهدًا كريمًا متدينًا، وكان محبّاً للنظام متمسكًا به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفًا بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء العسكريين، شكل منهم مجلسًا للشورى، وتوسع فى آسيا الصغرى وأوروبا فى وقت واحد.

ففى أوروبا هاجم الجيش العثمانى أملاك الدولة البيزنطية ثم استولى على مدينة أدرنة فى عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) وكانت لتلك المدينة أهمية استراتيجية فى البلقان، وكانت ثانى مدينة فى الامبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية، وكان هدف مراد من هذه النقلة:

١- استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربية وقربها من مسرح العمليات الجهادية.

٢- رغبة مراد فى ضم الأقاليم الأوروبية التى وصلوا إليها فى جهادهم وثبتوا أقدامهم فيها.

٣- جمع مراد فى هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الإنكشارية.

واستمرت أدرنة على هذا الوضع السياسى والإدارى والثقافى والدينى حتى فتح العثمانيون القسطنطينية فى عام (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، فأصبحت عاصمة لدولتهم[1].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، د. إسماعيل أحمد، ص (٣٨).

أولاً: تحالف صليبى ضد مراد:

مضى السلطان مراد فى حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم فى أوروبا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة، فتكون تحالف أوروبى بلقانى صليبى باركه البابا أوربان الخامس، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا. وقد استطاعت الدول الأعضاء فى التحالف الصليبى أن تحشد جيشًا بلغ عدده ستين ألف جندى تصدى لهم القائد العثمانى «لالاشاهين» بقوة تقل عددًا عن القوات المتحالفة، وقابلهم على مقربة من «تشيرمن» على نهر مارتيزا، حيث وقعت معركة مروعة وانهزم الجيش المتحالف، وهرب الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا فى نهر مارتيزا، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت، أما السلطان مراد فكان فى هذه الأثناء مشتغلاً بالقتال فى بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدة مدن ثم عاد إلى مقر سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم[١].

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر مارتيزا أمور مهمة منها:

١- تم لهم فتح إقليم تراقيا ومقدونيا ووصلوا إلى جنوبى بلغاريا وإلى شرقى صربيا.

٢- أصبحت مدن وأملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط فى أيديهم كأوراق الخريف[٢].

أول معاهدة بين الدولة العثمانية والمسيحية:

لما اشتد ساعد الدولة العثمانية خاف مجاوروها، خصوصًا الضعفاء منهم، فبادرت جمهورية (راجوزه)[٣] وأرسلت إلى السلطان مراد رسلاً ليعقدوا معه معاهدة ودية وتجارية تعاهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهب، وهذه أول معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية[٤].

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص (١٣١).

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٣٧).

(٣) تطل على البحر الأدرياتيكى.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، د. محمد فريد، ص (١٣٢).

معركة قوصوه:

كان السلطان مراد قد توغل فى بلاد البلقان بنفسه وعن طريق قواده مما آثار الصرب، فحاولوا فى أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا فى الهجوم على الجيوش العثمانية فى البلقان وما جاورها، ولكنهم فشلوا فى تحقيق انتصارات تذكر على العثمانيين، فتحالف الصرب والبوسنيون والبلغار وأعدوا جيشًا أوروبيًا صليبياً كثيفًا لحرب السلطان الذى كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعدادًا قوياً إلى منطقة كوسوفا فى البلقان. ومن الموافقات التى تذكر أن وزير السلطان مراد الذى كان يحمل معه مصحفًا فتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] فاستبشروا بالنصر واستبشر معه المسلمون، ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمى وطيسه واشتدت المعركة وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصاراً باهرًا حاسمًا[(١)].

ثانيًا: استشهاد السلطان مراد:

بعد الانتصار فى قُوصُوه، قام السلطان مراد يتفقد ساحة المعركة ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ويدعو لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفى أثناء ذلك قام جندى من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه على يديه، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام فى حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد رحمه الله فى ١٥ شعبان ٧٩١هـ[(٢)].

أ- الكلمات الأخيرة للسلطان مراد:

«لا يسعنى حين رحيلى إلا أن أشكر الله، إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتى

---

(١) انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدى، ص (٣٠)، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٨٩).

(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرمانى، ص (١٦).

على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. أطيعوا ابنى يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذى يحفظ دولتنا من كل سوء»[1]. لقد استشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عامًا.

ب- دعاء السلطان مراد قبل اندلاع معركة قوصوه:

كان السلطان مراد يعلم أنه يقاتل فى سبيل الله وأن النصر من عنده، ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه، ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعانى العبودية، يقول السلطان مراد فى مناجاته لربه: «يا الله يا رحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة أرسل السماء علينا مدرارًا وبدد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين، إنك الوهاب ونحن فقراؤك. وما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع، وأنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تخفى الصدور، ليس لى من غاية لنفسى ولا مصلحة ولا يحملنى طلب المغنم فأنا لا أطمع إلا فى رضاك يا الله يا عليم يا موجود فى كل الوجود[2] أفديك روحى فتقبل رجائى ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو. يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلنى سببًا فى موتهم، بل اجعلهم المنتصرين، إن روحى أبذلها فداءً لك يا رب، إنى وددت ولازلت دومًا أبغى الاستشهاد من أجل جند الإسلام، فلا ترنى يا إلهى محنتهم واسمح لى يا إلهى هذه المرة أن أستشهد فى سبيلك ومن أجل مرضاتك...»[3].

وفى رواية: «يا إلهى، إننى أقسم بعزتك وجلالك إننى لا أبتغى من جهادى هذه الدنيا الفانية، ولكننى أبتغى رضاك، ولا شىء غير رضاك يا إلهى، إننى أقسم بعزتك وجلالك أننى فى سبيلك، فزدنى تشريفًا بالموت فى سبيلك»[4].

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص(٣٩١).

(٢) أي موجود بعلمه فى كل الوجود.

(٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص(٣٩٠)

(٤) انظر: جوانب مضيئة، ص(١٩٠).

وفي رواية: «يا إلهي، ومولاي، تقبل دعائي وتضرعي، وأنزل علينا برحمتك غيثًا يطفئ من حولنا غبار العواصف، وأغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات، حتى نتمكن من إبصار مواقع عدونا فنقاتله في سبيل إعزاز دينك العزيز.

إلهي ومولاي، إن الملك والقوة لك، تمنحها لمن تشاء من عبادك، وأنا عبدك العاجز الفقير، تعلم سري، وجهري، أقسم بعزتك وجلالك أنني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدنيا الفانية، ولكني أبتغي رضاك ولا شيء غير رضاك.

إلهي، ومولاي، أسألك بجاه وجهك الكريم، أن تجعلني فداء للمسلمين جميعًا، ولا تجعلني سببًا في هلاك أحد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم.

إلهي، ومولاي، إن كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك، لأنعم بجوارك ونعم الجوار جوارك.

إلهي، ومولاي، لقد شرفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك، فزدني شرفًا بالموت في سبيلك»[1].

إن هذا الدعاء الخاشع دليل على معرفة السلطان مراد لله -عز وجل-، وعلى أنه حقق شروط كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولقد اجتمعت شروطها في سلوكه وحياته فهو على:

- علم بمعناها المراد بها نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل بذلك، قال تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. أي بـ«لا إله إلا الله» وهم يعلمون بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

- اليقين المنافي للشك، فقد كان السلطان مراد مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة، يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[2]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) جوانب مضيئة، ص (٤٠، ٤١).

(٢) معارج القبول (٢/ ٤١٩).

- قبوله لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وانقياده لما دلت عليه من أوامر واجتناب للنواهى قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

- كان صادقًا مع ربه، مخلصًا إخلاصًا طهر به شوائب الشرك من نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

- كان مخلصًا لخالقه مستعدًا لبذل النفس والمال فى سبيله قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفى الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»[1].

لقد فهم السلطان مراد حقيقة الإيمان وكلمة التوحيد وذاق آثارها فى حياته، فنشأت فى نفسه أنفة وعزة مستمدة من الإيمان بالله، فأيقن أنه لا نافع إلا الله، فهو المحيى والمميت، وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة، ومن ثم نزع من قلبه كل خوف إلا منه سبحانه، فلم يطأطئ رأسه أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يرتع من كبريائه وعظمته، لأنه على يقين بأن الله هو القادر العظيم، ولقد أكسبه الإيمان بالله قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع إلى معالى الأمور ابتغاء مرضاته -سبحانه وتعالى-، فكان فى المعارك التى

(١) البخارى، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ١١) رقم (١٦).

خاضها ثابتًا كالجبال الراسية، وكان على يقين راسخ بأن المالك الوحيد لنفسه وماله هو الله -سبحانه وتعالى-، ولذلك لم يبال بـأن يضحى فى سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص.

إن السلطان مراد عاش حقيقـة الإيمان ولذلك اندفع إلى ساحات الجهاد، وبذل ما يملكه من أجل دعوة الإسلام.

لقد قـاد السلطان مراد الـشعب العثـمانى ثلاثين سـنة بكل حكمة ومـهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسـة عصره، قال المؤرخ البيزنطى هالكو نديلاس عن مراد الأول: (قام مراد بأعمال مهمة كـثيرة. دخل ٣٧ معركة سواء فى الأناضول أو فى البلقان، وخرج منهـا جميعًا ظافرًا، وكان يـعامل رعيته معاملة شـفوقة دون النظر لفوارق العرق والدين)[١].

ويقول عنه المؤرخ الفرنسى كرينارد: (كان مراد واحدًا من أكبر رجالات آل عثمان، وإذا قوّمناه تقويمًا شخصيًا، نجده فى مستوى أعلى من كل حكام أوروبا فى عهده)[٢].

ولقد ورث مراد الأول عن والده إمـارة كبيرة بلغت ٩٥,٠٠٠ كيلومـتر مربع وعند استشهاده، تسلم ابنه بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠,٠٠٠ كيلومـتر مربع بمعنى أنها زادت فى مـدى حوالى ٢٩ سنة أكثـر خمسة أمـثال ما تركها له والده أورخان[٣].

أما النتائج التى ترتبت على انتصار المسلمين فى معركة قوصوه فهى ما يلى:

١- انتشار الإسلام فى البلقان وتحول عدد كـبير من الأشراف القدامى والشيوخ إلى الإسلام بمحض إرادتهم.

٢- اضطرت العديد من الدول الأوروبيـة إلى أن تخطب ود الدولة العثمـانية، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم، وقام البعض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم.

٣- امـتدت سلطة العـثـمانيين عـلى أمراء المجـر ورومانـيا والمناطق المجـاورة للإدرياتيك حتى وصل نفوذهم إلى ألبانيا[٤].

---

(١)، (٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص(١٩).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص(٢٠).

(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمرى، ص(٣٨٨).

المبحث الرابع

السلطان بايزيد الأول

٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٢م

بعد استشهاد السلطان مراد تولى الحكم ابنه بايزيد، وكان شجاعًا شهمًا كريمًا متحمسًا للفتوحات الإسلامية، ولذلك اهتم اهتمامًا كبيرًا بالشئون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية فى الأناضول، وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد كمثل البرق فى تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب «الصاعقة»[١].

أولاً: سياسته مع الصرب:

شرع بايزيد فى إقامة علاقات ودية مع الصرب مع أنهم كانوا السبب فى قيام تحالف بلقانى ضد الدولة العثمانية، وكان غرض بايزيد منْ هذه العلاقة اتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر، وكان يشعر بضرورة اتخاذ حليف له فى سياسته العسكرية النشطة التى استهدفت الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية فى آسيا الصغرى، ولذلك وافق بايزيد على أن يحكم الصرب ابنا الملك (لازار) الذى قتل فى معركة قوصوة وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب وأعرافها وتقاليدها وعاداتها، وأن يدينا له بالولاء ويقدما له جزية وعددًا معينًا من الجنود يشتركون فى فرقة خاصة بهم فى حروبه[٢]، وتزوج ابنة الملك لازار.

ثانيًا: إخضاع بلغاريا للسيادة العثمانية:

بعد أن تم التفاهم مع الصرب وجه بايزيد ضربة خاطفة فى عام (٧٩٧هـ/ ١٣٩٣م) إلى بلغاريا، فاستولى عليها وأخضع سكانها، وبذلك فقدت البلاد استقلالها السياسى. وكان لسقوط بلغاريا فى قبضة الدولة العثمانية صدى هائل

---

(١) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٤٠).

(٢) المصدر نفسه ص (٤١).

في أوروبا وانتشر الرعب والفزع والخوف في أنحائها، وتحركت القوى المسيحية الصليبية للقضاء على الوجود العثماني في البلقان[1].

ثالثًا: التكتل الدولي المسيحي الصليبي ضد الدولة العثمانية:

قام سيجسموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع بالدعوة لتكتل أوروبي صليبي مسيحي ضد الدولة العثمانية، وكان ذلك التكتل من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التي اشتركت فيه، ثم أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة الصليبية ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية)[2].

وتحركت الحملة عام (٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م) إلى المجر، ولكن زعماءها وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة. فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم، ولكن قواد الحملة شرعوا بالهجوم، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى نيكوبوليس شمال البلقان وبدأوا في حصارها وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية، إلا أن بايزيد ظهر فجأة ومعه حوالي مائة ألف جندي، وهو عدد يقل قليلاً عن التكتل الأوروبي الصليبي، ولكنه يتفوق عليهم نظامًا وسلاحًا، فانهزم معظم النصارى ولاذوا بالفرار والهروب، وقتل وأسر عدد من قادتهم. وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرة وفيرة واستولوا على ذخائر العدو[3]. وفي نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد: إنه سيفتح إيطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما[4].

لقد وقع كثير من أشراف فرنسا -منهم الكونت دي نيفر نفسه- في الأسر، فقبل السلطان بايزيد دفع الفدية وأطلق سراح الأسرى والكونت دي نيفر، وكان

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤١).

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٤، ٢٥).

(٣) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٢).

(٤) انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص (٣٣).

قد ألزم بالقسم علـى أن لا يعود لمحاربته، قال له: إنى أجـيز لك أن لا تحفظ هذا اليـمين فـأنت فى حل من الرجوع لمحـاربتى، إذ لا شىء أحب إلىّ من محـاربة جميع مسيحيى أوروبا والانتصار عليهم[1].

أما سـيجسمـوند ملك المجر - الذى كان قد بلغ به الغـرور والاعتداد بجيـشه وقوته أن قـال: لو انقضت السـماء علياءها لأمـسكناها بحرابنا - فـقد ولى هاربًا ومعه رئيس فرسان ردوس، ولما بلغا فى فـرارهما شاطئ البحر الأسود وجد هناك الأسطول النصرانى فـوثبا على إحـدى السفن وفرت بهـما مسـرعة لا تلوى على شىء، وتضاءلت مكانة المجر فى عـيون المجتمع الأوروبى بعد مـعركة نيكوبوليس وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة[2].

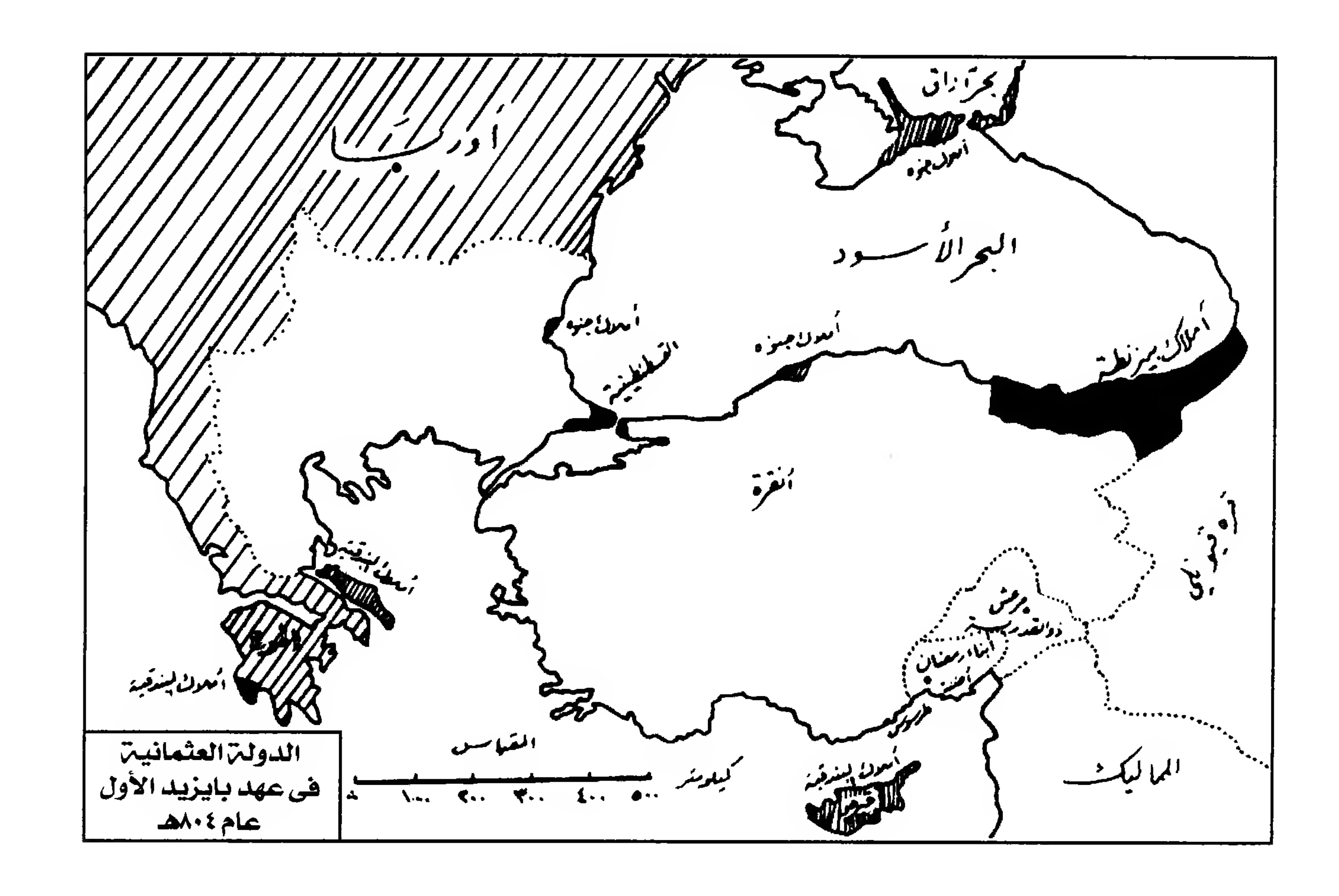
لقد كان ذلك النصر المظفر له أثر على بايزيد والمجـتمع الإسلامى، فقام بايزيد ببعث رسـائل إلى كبار حـكام الشرق الإسلامى يبـشرهم بالانتصـار العظيم على النصارى، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحيين باعتبارهم هدايا من المـنتصر ودليلاً ماديّاً على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السـلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول، كما أرسل إلى الخليفة العباسى المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقـر هذا اللقب حـتى يتسنـى له بذلك أن يسبغ عـلى السلطة التى مـارسهـا هو وأجداده من قبل طابعًا شـرعيّاً رسميّاً فتزداد هيبـته فى العالم الإسلامى، وبالطبع وافق السلطان المملوكى برقوق حـامى الخليفة العـباسى على هذا الطلب لأنه يرى بايزيد حليـفه الوحـيد ضد قـوات تيمـورلنك التى كانت تهـدد الدولة المملوكـية والعـثمـانية، وهاجـر إلى الأناضول آلاف المسلمـين الذين قدمـوا لخدمـة الدولة العثـمانيـة، وكانت الهجـرة مليئـة بالجنود، وممن أسهـموا فى الحيـاة الاقتـصادية والعلمية والحكومـية فى إيران والعراق وما وراء النهر -هذا بالإضافـة إلى الجموع التى فرت من أمام الزحف التيمورلنكى على آسيا الوسطى[3].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص (١٤٤).

(٢) انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدى، ص (٣٣).

(٣) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، أحمد عبد الحليم، ص (٥٤، ٥٥).



الدولة العثمانية
فى عهد بايزيد الأول
عام ٨٠٤هـ
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أوروبا
أملاك جنوه
أملاك جنوه
القسطنطينية
أملاك بيزنطة
أنقرة
أملاك البندقية
أملاك البندقية
أملاك البندقية
قبرص
مرعش
ذو القدر
أبناء رمضان
أضنة
طرسوس
المماليك

رابعًا: حصار القسطنطينية:

استطاع بايزيد قبل معركة نيكوبوليس أن يشدد النكير على الإمبراطورية البيزنطية وأن يفرض على الإمبراطور أن يعين قاضيًا فى القسطنطينية للفصل فى شئون المسلمين وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطية وقبل الإمبراطور إيجاد محكمة إسلامية وبناء مسجد وتخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية الإسلامية، كما تنازل بايزيد عن نصف حى غلطة الذى وضعت فيه حامية عثمانية قوامها ٦,٠٠٠ جندى، وزيدت الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية، وفرضت الخزانة العثمانية رسومًا على الكروم ومزارع الخضراوات الواقعة خارج المدينة، وأخذت المآذن تنقل الأذان إلى العاصمة البيزنطية[١].

وبعد الانتصار العظيم الذى حققه العثمانيون فى معركة نيكوبوليس ثبت العثمانيون أقدامهم فى البلقان، حيث انتشر الخوف والرعب بين الشعوب البلقانية، وخضعت البوسنة وبلغاريا إلى الدولة العثمانية، واستمر الجنود العثمانيون يتتبعون فلول النصارى فى ارتدادهم. وعاقب السلطان بايزيد حكام شبه جزيرة المورة الذين قدموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبى[٢]، وعقابًا للإمبراطور البيزنطى على موقفه المعادى طلب بايزيد منه أن يسلم القسطنطينية، وإزاء ذلك استنجد الإمبراطور مانويل بأوروبا دون جدوى. والحق أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفًا رئيسًا فى البرنامج الجهادى للسلطان بايزيد الأول. ولذلك فقد تحرك على رأس جيوشه وضرب حصارًا محكمًا حول العاصمة البيزنطية وضغط عليها ضغطًا لا هوادة فيه واستمر الحصار حتى أشرفت المدينة فى نهايتها على السقوط، وبينما كانت أوروبا تنتظر سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر إذ بالسلطان ينصرف عن فتح القسطنطينية لظهور خطر جديد على الدولة العثمانية[٣].

خامسًا: الصدام بين تيمورلنك وبايزيد:

ينتمى تيمورلنك إلى الأسر النبيلة فى بلاد ما وراء النهر، وفى عام ١٣٦٩م جلس على عرش خراسان وقاعدته سمرقند، واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة

---

(١) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص (٥٣).

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٤٢).

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل أحمد، ص (٤٣).

وأن يهيمن على القسم الأكـبر من العالم الإسلامى، فقد انتشرت قـواته الضخمة فى آسيا مـن دلهى إلى دمشق، ومن بحر آرال إلى الخليج العربـى، واحتل فارس وأرمينيا وأعالى الفرات ودجلة والمناطق الواقعة بين بحر قزوين إلى البحر الأسود. وفى روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدنيبر وأعلن بأنه سيسيطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكًا له، وكان يردد: «إنه يجب ألا يوجد سوى سيـد واحد على الأرض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحـد فى السماء»[1] وقد اتصف تيمورلنك بالشجاعـة والعبقرية الحربية والمهارة السياسـية وكان قبل أن يقرر أمرًا يجمع المعلومـات ويرسل الجواسيس ثم يصدر أوامره بعـد ترو وتأن بعيدًا عن العجلة وكان من الهيبة بحيث إن جنوده كانوا يطيعون أوامره أيّاً كانت.

وكان تيمور باعـتباره مسلمًا يرعى العلماء ورجال الدين وبخـاصة اتباع الطريقة النقشبندية[2].

وكانت هناك عوامل وأسباب ساهمت فى إيجاد صراع بين تيمورلنك وبايزيد منها:

١- لجأ أمراء العراق الذين استولى تيمور على بلادهم إلى بايزيد، كما لجأ إلى تيمور بعض أمراء آسـيا الصغرى. وفى كلا الجانبين كان اللاجـئون يحرضون من استجاروا به على شن الحرب ضد الطرف الآخر.

٢- تشجيع النصارى لتيمورلنك ودفعه للقضاء على بايزيد.

٣- الرسائل النارية بين الطرفين، ففى إحدى الرسائل التى بعث بها تيمور إلى بايزيد أهانه ضمـنيّاً حين ذكّـره بغموض أصل أسـرته، وعرض عليه العـفو على اعتبار أن آل عثـمان قد قدموا خدمات جليلة إلى الإسلام، ولو أنـه اختتم رسالته - بصفته زعـيمًا للترك- باستصـغار شأن بايزيد الذى قبل التحدى بأنه سـيتعقب تيمورلنك إلى تبريز وسلطانية[3].

وكان الزعيمان تيمورلنك وبايزيد يسعى كل منهما لتوسيع دولته.

سادسًا: انهيار الدولة العثمانية:

تقدم تيمورلنك بجيوشه واحتل سيـواس، وأباد حاميتها التى كان يقودها الأمير أرطغرل بن بايزيد، والتقى الجيشـان قرب أنقرة فى عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م وكانت

(١) (٢) فى أصول التاريخ العثمانى، ص (٦٥).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٥٧).

قوات بايزيد تبلغ ١٢٠,٠٠٠ مجاهد لملاقاة خصمه، وزحف تيمورلنك على رأس قوات جرارة فى ٢٠ يوليو ١٤٠٢م (٨٠٤هـ) وانتصر المغول ووقع بايزيد فى الأسر وظل يرسف فى أغلاله حتى وافاه الأجل فى السنة التالية[١].

وكانت الهزيمة بسبب اندفاع وعجلة بايزيد، فلم يحسن اختيار المكان الذى نزل فيه بجيشه الذى لم يكن يزيد على مائة وعشرين ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائة ألف، ومات كثير من جنود بايزيد عطشًا لقلة الماء وكان الوقت صيفًا شديد القيظ. ولم يكد يلتقى الجيشان فى أنقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا فى جيش بايزيد وجنود الإمارات الآسيوية التى فتحها منذ عهد قريب، وانضموا إلى جيش تيمورلنك، ولم يجد السلطان العثمانى بعد ذلك ما أظهره هو وبقية جيشه من الشجاعة والاستماتة فى القتال[٢].

لقد فرحت الدول النصرانية فى الغرب بنصر تيمورلنك وهزها الطرب لمصرع بايزيد وما آلت إليه دولته من التفكك والانحلال، وبعث ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتالة وإمبراطور القسطنطينية إلى تيمورلنك يهنئونه على ما أحرزه من النصر والظفر المجيد، واعتقدت أوروبا إنها قد تخلصت إلى الأبد من الخطر العثمانى الذى طالما روعها وهددها[٣].

واستولى تيمورلنك بعد هزيمة بايزيد على أزنيق وبروسة وغيرهما من المدن والحصون ثم دك أسوار أزمير وخلصها من قبضة فرسان رودس[٤] (فرسان القديس يوحنا)، محاولاً بذلك أن يبرر موقفه أمام الرأى العام الإسلامى الذى اتهمه بأنه وجه ضربة شديدة إلى الإسلام بقضائه على الدولة العثمانية، وحاول تيمورلنك بقتاله لفرسان القديس يوحنا أن يضفى على معارك الأناضول طابع الجهاد[٥].

كما أعاد تيمورلنك أمراء آسيا الصغرى إلى أملاكهم السابقة، ومن ثم استرجاع الإمارات التى ضمها بايزيد لاستقلالها، كما بذر تيمور بذور الشقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على العرش[٦].

---

(١) الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٢، ٣).

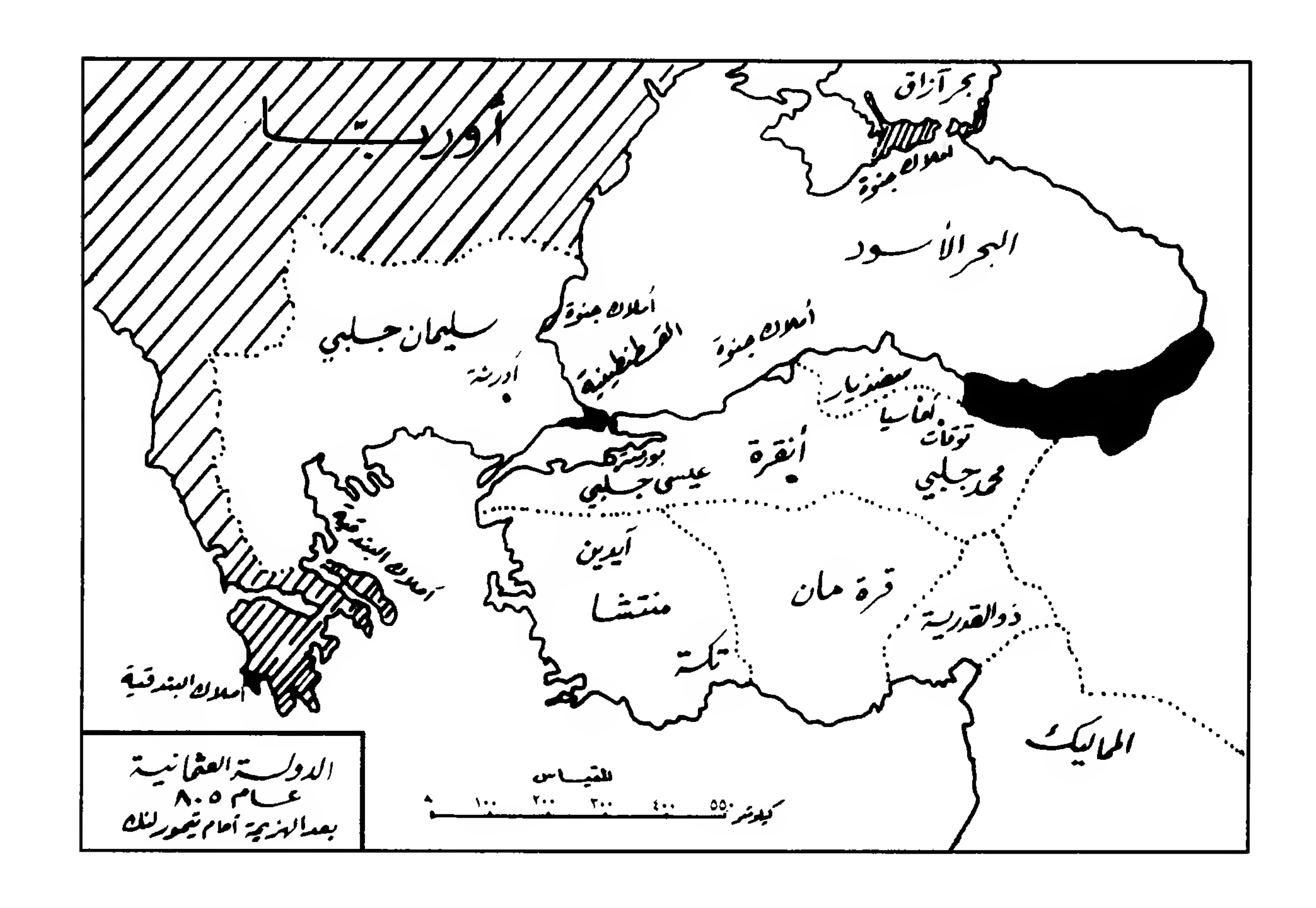
(٢) محمد الفاتح، د. سالم الرشيدى، ص (٣٥).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٦).

(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٥٩).

(٥) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص (٥٩).

(٦) المصدر السابق نفسه، ص (٥٩).



الدولة العثمانية
عام ٨٠٥ م
بعد الهزيمة أمام تيمورلنك
المقياس
كيلومتر ٥٥٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوة
البحر الأسود
سليمان جلبي
أدرنة
أملاك جنوة
القسطنطينية
أملاك جنوة
صفنديار
أماسيا
توقات
محمد جلبي
أنقرة
بورصة
عيسى جلبي
أيدين
منتشا
قرة مان
ذو القدرية
تكة
أملاك البندقية
أملاك البندقية
المماليك

سابعًا: الحروب الداخلية:

لقد تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلى تمثل فى نشوب حرب أهلية فى الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (٨٠٦-٨١٦هـ/ ١٤٠٣-١٤١٣م)(١).

كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه فى القتال، أما مصطفى فقد ظن أنه قُتل فى المعركة، أما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الآخرون فى الفرار. أما أكبرهم سليمان فقد ذهب إلى أدرنة، وأعلن نفسه سلطانًا هناك، وذهب عيسى إلى بروسة وأعلن للناس أنه خليفة أبيه، ونشبت الحرب بين هؤلاء الإخوة الثلاثة يتنازعون بينهم أشلاء الدولة الممزقة والأعداء يتربصون بهم من كل جانب. ثم أطلق تيمورلنك الأمير موسى ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضراوةً وشدة وأخذ يحرضهم على القتال ويغرى بعضهم ببعض(٢).

وبعد عام ارتحل تيمورلنك بجيشه وترك وراءه البلاد على أسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى(٣).

لقد كانت هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلى المتمثل فى فتح القسطنطينية، ولقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها فى بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهى سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله -تعالى- أن يبتلى المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين فى الأرض بعد ذلك.

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمى من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكين ورسوخ، قال تعالى:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

---

(١) الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٤٣).

(٢)، (٣) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٦).

الفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب فى الأنفس ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم[1].

قال ابن كثير -رحمه الله-: (والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ إنكارى ومعناه: أن الله سبحانه لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان)[2] كما جاء فى الحديث الصحيح: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء**»[3].

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن، حيث قال: «**مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد**»[4].

إن سنة الابتلاء جارية فى الأمم والدول والشعوب والمجتمعات، ولذلك جرت سنة الله بالابتلاء بالدولة العثمانية.

صمد العثمانيون لمحنة أنقرة بالرغم مما عانوه من خلافات داخلية، إلى أن انفرد محمد الأول بالحكم فى عام ١٤١٣م، وأمكنه لمّ شتات الأراضى التى سبق للدولة أن فقدتها، إن إفاقة الدولة من كارثة أنقرة يرجع إلى منهجها الربانى الذى سارت عليه حيث جعل من العثمانيين أمة متفوقة فى جانبها العقدى والدينى والسلوكى والأخلاقى والجهادى، وبفضل الله حافظ العثمانيون على حماستهم الدينية وأخلاقهم الكريمة[5]، ثم بسبب المهارة النادرة التى نظم بها أورخان وأخوه علاء الدين دولتهما الجديدة وإدارة القضاء المثيرة للإعجاب والتعليم المتواصل لأبناء وشباب العثمانين وغير ذلك من الأسباب التى جعلت فى العثمانيين قوة حيوية كاملة، فما لبثت هذه الدولة بعد كارثة أنقرة إلا أن انبعثت من جديد من بين الأنقاض والأطلال وانتعشت وسرى فى عروقها ماء الحياة، وروح الشريعة، واستأنفت سيرها إلى الأمام فى عزم وإصرار حير الأعداء والأصدقاء[6].

---

(١) تفسير النسفى (٣/ ٢٤٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٥).
(٣) سنن الترمذى (٤/ ٦٠١) حديث حسن صحيح.
(٤) مسلم بشرح النووى، كتاب القيامة والجنة والنار (١٧/ ١٥١).
(٥) فى أصول التاريخ العثمانى، ص (٦١).
(٦) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

المبحث الخامس

السلطان محمد الأول

ولد السلطان محمد الأول عام (٧٨١هـ/ ١٣٧٩م)[١]، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف فى التاريخ (بمحمد جلبى).

كان متوسط القامة، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، أبيض البشرة، أحمر الخدين، واسع الصدر، صاحب بدن قوى، فى غاية النشاط، وجسوراً، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس. اشترك أثناء حكمه فى ٢٤ حربًا وأصيب بأربعين جرحًا[٢]. استطاع السلطان محمد جلبى أن يقضى على الحرب الأهلية بسبب ما أوتى من الحزم والكياسة وبُعْد النظر، وتغلب على إخوته واحدًا واحدًا حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان، وقضى سنى حكمه الثمانى فى إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها[٣]. ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثانى للدولة العثمانية[٤].

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم فى معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة، فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد، وعفا عنه ثانية بعد أن حنث فى يمينه[٥]. وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل، ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الأسود وفى تساليا، وصالح البندقية بعد هزيمة أسطوله أمام كليتبولى وقمع الفتن والثورات فى آسيا وأوروبا، وأخضع بعض الإمارات الآسيوية التى أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء[٦].

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص (٣٣).

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٤١).

(٣) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

(٤) انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٤١).

(٥) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص (٢٤٩).

(٦) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

وظهر فى زمن السلطان محمد شخص يسمى بدر الدين انتحل صفة علماء الدين الإسلامى، وكان فى جيش موسى أخى السلطان محمد، وتولى منصب قاضى العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ، وكان هذا القاضى قد احتضنه موسى بن بايزيد.

قال صاحب الشقائق النعمانية:

(الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل.. المشهور بابن قاضى سيماونة، ولد فى قلعة بدر الدين فى بلاد الروم إحدى قرى أدرنة التى تقع فى الجزء الأوروبى من تركيا، كان أبوه قاضيًا لها وكان أيضًا أمير على عسكر المسلمين (فيها) وكان فتح تلك القلعة على يده أيضًا... ولادة الشيخ بدر الدين كانت فى زمن السلطان الغازى خداوندكار (مراد الأول) من سلاطين آل عثمان، ثم أخذ الشيخ العلم فى صباه عن والده... وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشتهر بالشاهدى، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا يوسف، ثم ارتحل إلى الديار المصرية، وقرأ هناك مع (أى مزمل) السيد الشريف الجرجانى، على مولانا مبارك شاه المنطقى المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه وقرأ بمكة على الشيخ الزيلعى، ثم قدم القاهرة، وقرأ مع السيد الجرجانى على الشيخ أكمل الدين (البابيورى) وقرأ على الشيخ المذكور (أى تعلم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين) السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر (سلطان مصر المملوكى برقوق).

ثم أدركته (أى الشيخ بدر الدين) الجذبة الإلهية، والتجأ إلى كنف الشيخ سعيد الأخلاطى الساكن بمصر وقتئذ وحصل عنده ما حصل (أى أصبح مريده). وأرسله الشيخ الأخلاطى إلى بلدة تبريز للإرشاد (الصوفى)، حكى أنه لما جاء تيمورلنك تبريز... نال (أى بدر الدين) من الأمير المذكور (تيمورلنك) مالاً جزيلاً بالغًا إلى نهايته، ثم ترك الشيخ الكل، ولحق ببدليس ثم سافر إلى مصر.. ثم إلى حلب ثم إلى قونية ثم إلى تبرة من بلاد الروم، ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز (وهو نصرانى) فأسلم على يدى الشيخ... ثم لما تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازى نصب الشيخ (أى جعل من الشيخ بدر الدين) قاضيًا لعسكره، ثم إن أخا موسى (محمدًا) قتل موسى وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزنيق[1].

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٣٣، ١٣٤) نقلاً عن الشقائق النعمانية مخطوط (لا له لى) بالسليمانية رقم (٢٠٧٦).

وفى أزنيق -وهى مدينة فى تركيا- بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل يدعو إلى مذهبه الفاسد، فكان يدعو إلى المساواة فى الأموال، والأمتعة، والأديان، ولا يفرق بين المسلم وغير المسلم فى العقيدة، فالناس إخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ما تدعو إليه الماسونية اليهودية، وانضم إلى هذه الدعوة الباطلة كثير من الأغبياء والجهلة وأصحاب الأغراض الدنيئة، وأصبح للمفسد بدر الدين تلاميذ يدعون إلى منهجه ومذهبه، ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يسمى (بير قليجة مصطفى) وآخر يقال إنه من أصل يهودى هو (طوره كمال) واليهود دائمًا خلف المؤامرات منذ زمن النبى ﷺ وحتى عصرنا هذا.

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد وكثر أتباعه، وتصدى السلطان محمد جلبى لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين، وللأسف قتل القائد سيسمان الذى أرسله محمد جلبى على يد الخائن (بير قليجة) وهزم جيشه، وأعد السلطان محمد جلبى جيشًا آخر بقيادة وزيره الأول (بايزيد باشا)، فحارب (بير قليجة) وانتصر عليه فى موقعه (قره بورنو) وبعدها أقيم حد الحرابة على (بير قليجة) امتثالاً لأمر الله[1] الذى يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

واستمر الشيخ بدر الدين فى غيه وظن أنه سيتمكن من البلاد بسبب ما تمر به من حالة تمزق كامل وفوضى ضربت بأطنابها فى كل أرجاء البلاد، وكان بدر الدين يقول: (إنى سأثور من أجل امتلاك العالم، وباعتقاداتى ذات الإشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريدى بقوة العلم وسر التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبم، وسأحلل - باتساع مشاربى- بعض المحرمات[2].

وكان أمير الأفلاق (فى رومانيا) يدعم هذا المنشق وهذا المبتدع وهذا الزنديق ماديّاً وعسكريّاً، وكان السلطان محمد جلبى لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيق

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص (٣٥).

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (١٤٠).

عليها الخناق، حتى اضطر بدر الدين أن يعبر إلى منطقة دلى أورمان (فى بلغاريا الآن)[1]. يقول محمد شرف الدين فى مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلى أورمان: (إن هذه القصة وما يحيط بها من مناطق هى مأوى الباطنية، وهى منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحاق التى قامت ضد الدولة العثمانية فى منتصف القرن السابع الهجرى، وإن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات)[2].

وفى دلى أورمان بدأت المعونات الأوروبية تفد إلى الشيخ، واتسع نطاق الثورة ضد السلطان العثمانى محمد الأول، ووصلت فلول المنشقين أعداء الإسلام الصحيح إلى ما بين ٧-٨ آلاف مقاتل[3].

وكان السلطان محمد الأول يتابع الأمور بحذر ويقظة، ولم يكن غافلاً عما يفعله الثوار وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين، وكان هذا على رأس جيش عظيم فى دلى أورمان.

اتخذ السلطان محمد من سيروز (فى اليونان الآن) مركزًا لقيادته. أرسل السلطان قواته إلى الثوار فهزمتهم، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته، فى منطقة دلى أورمان، فرارًا من السلطان[4].

واستطاعت مخابرات السلطان محمد الأول أن تخترق صفوف الثوار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوار المبتدع بدر الدين فى الأسر[5].

وعندما قابل السلطان محمد الأول بدر الدين قال له: ما لى أرى وجهك قد اصفر؟

أجابه بدر الدين: إن الشمس يا مولاى، تصفر عندما تقترب من الغروب.

---

(١)، (٢) العثمانيون فى التاريخ والحضارة ص (١٤٠).

(٣)، (٤) المصدر السابق نفسه، ص (١٤١).

(٥) المصدر السابق نفسه، ص (١٤١، ١٤٢).

وقام علماء الدولة بمناظرة علمية حرة مع بدر الدين ثم أقيمت محكمة شرعية، وأصدر حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء التى استندت إلى توجيه رسول الله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميعًا على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه»[1].

إن المذهب الفاسد الذى كان يدعو إليه «بدر الدين» هو نفس مذهب الماسونية اليهودية المعاصرة (القرن الخامس عشر الهجرى/ العشرون الميلادى) وهو يقوم على إلغاء الحواجز بين أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصحاب العقائد الفاسدة، إذ إنه يقول بالإخوة بين المسلمين واليهود والنصارى وعباد البقر والشيوعيين، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التى تؤكد أنه لا أخوة بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة، لأنه كيف يكون هناك أخوة بين من يحاربون الله ورسوله، وبين المؤمنين الموحدين[2].

كان السلطان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون، وقيل: هو أول سلطان عثمانى أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التى يطلق عليها اسم الصرة، وهى عبارة على قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة[3].

وقد أحب الشعب العثمانى السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب بهلوان (ومعناها البطل) وذلك بسبب نشاطه الجم وشجاعته، وأعماله العظيمة، وعبقريته الفذة التى قاد من خلالها الدولة العثمانية إلى بر الأمان، وجميل سجاياه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقب جلبى أيضًا وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة.

حقيقة إن بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرة، إلا أنه بالإمكان اعتباره من أنبل حكام العثمانين، فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته، واعتبره المؤرخون العثمانيون[4] بمثابة القبطان الماهر الذى حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هددتها طوفان الغزوات التترية، والحروب الداخلية، والفتن الباطنية.

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين (٣/ ١٤٨٠) رقم (١٨٥٢).

(٢) انظر: أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ (الدولة العثمانية)، ص (٣٨).

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص (١٥٢).

(٤) انظر فى أصول التاريخ العثمانى، ص (٦٢).

* وفاته:

بعد أن بذل السلطان محمد الأول قصارى جهده فى محو آثار الفتن التى مرت بها الدولة العثمانية وشروعه فى إجراء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب فى المستقبل، وبينما كان السلطان مشتغلاً بهذه المهام السلمية شعر بدنو أجله فدعا الباشا بايزيد وقال له: (عينت ابنى مراد خليفة لى فأطعه وكن صادقًا معه كما كنت معى. أريد منكم أن تأتونى بمراد الآن لأننى لا أستطيع أن أقوم من الفراش بعد، فإن وقع الأمر الإلهى قبل مجيئه حذارى أن تعلنوا وفاتى حتى يأتى)[1].

وفاجأه الموت فى سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) فى مدينة أورنة وأسلم روحه لخالقه وعمره ٤٣ سنة.

وخوفًا من حصول ما لا تحمد عقباه لو عُلم موت السلطان محمد الأول اتفق وزيراه إبراهيم وبايزيد على إخفاء موته على الجند حتى يصل ابنه مراد الثانى، فأشاعا أن السلطان مريض وأرسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يومًا وتسلم مقاليد الحكم[2].

ولقد كان السلطان محمد الأول محبًا للسلام والعلم والفقهاء ولذلك نقل عاصمة الدولة من أدرنة (مدينة الغزاة) إلى بروسة (مدينة الفقهاء)[3] وكان على خلق رفيع، وحزم متين، وحلم فريد، وسياسة فذة فى معاملة الأعداء والأصدقاء.

***

(١) انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٤١).

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص (١٥٢).

(٣) انظر: فى أصول التاريخ العثمانى، ص (٦٣).

المبحث السادس

مراد الثانى

تولى السلطان مراد الثانى أمر الدولة بعد وفاة أبيه (محمد جلبى) عام (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)، وكان عمره لا يزيد على ثمانى عشرة سنة، وكان محبًا للجهاد فى سبيل الله، والدعوة إلى الإسلام فى ربوع أوروبا[١].

كان معروفًا لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة والشفقة[٢]، استطاع السلطان مراد أن يقضى على حركات التمرد الداخلية التى قام بها عمه مصطفى والتى كانت تدعم من قبل أعداء الدولة العثمانية، وكان الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التى تعرض لها السلطان مراد، فهو الذى دعم عم السلطان مراد الذى اسمه مصطفى بالمساعدات حتى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولى ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له، إلا أن السلطان مراد قبض على عمه وقدمه للمشنقة، ومع ذلك فقد مضى الإمبراطور مانويل الثانى يكيد للسلطان، واحتضن شقيقًا لمراد الثانى ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقيا فى الأناضول، وسار إليه مراد واستطاع أن يقضى على قواته واضطر خصمه للاستسلام ثم قُتل، ومن ثم صمم السلطان مراد أن يلقن الإمبراطور درسًا عمليّاً، فأسرع باحتلال سلولنيك، فهاجمها ودخلها عنوة فى مارس ١٤٣١م (٨٣٤هـ)، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد يوجه الضربات الموجعة لحركات التمرد فى بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثمانى فى تلك الديار، واتجه الجيش العثمانى نحو الشمال لإخضاع إقليم ولاشيا وفرض عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد (ستيف لازار ميتش) إلى الخضوع للعثمانيين والدخول تحت حكمهم وجدد ولاءه للسلطان، واتجه جيش عثمانى نحو الجنوب، حيث قام بتوطيد دعائم الحكم

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص(٣٨).

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٤٣).

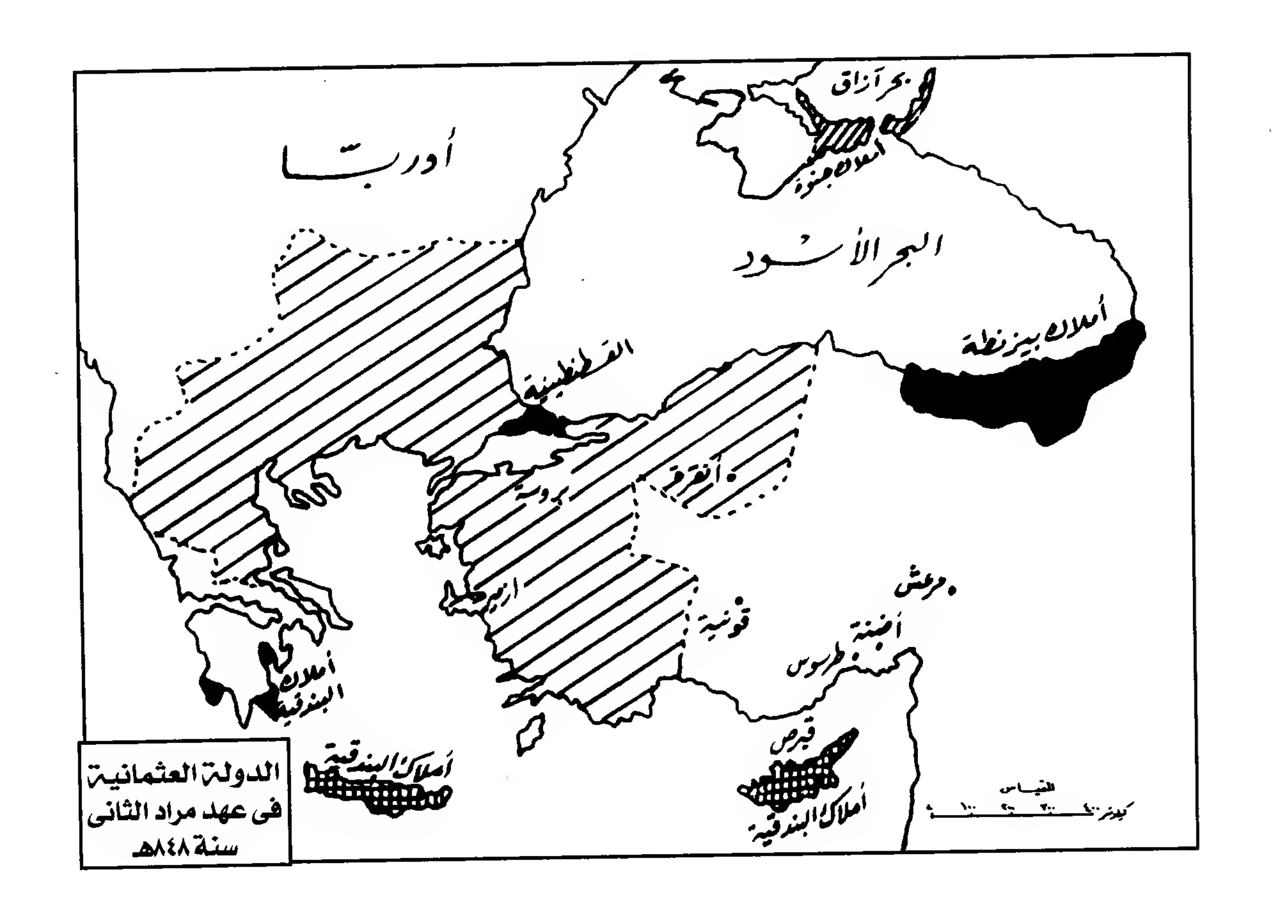
العثماني في بلاد اليونان. ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوى وقام بالقضاء على العوائق في كل من ألبانيا والمجر.

واستطاع العثمانيون أن يفتحوا ألبانيا عام (٨٣٤هـ/ ١٤٣١م) وركزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد. أما شمالي ألبانيا، فقد خاض العثمانيون فيه جهاداً مريراً، وتمكن الألبانيون الشماليون من القضاء على جيشين عثمانيين في جبال ألبانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة أثناء عملية الانسحاب، ووقفت الدولة النصرانية خلف الألبان لدعمهم ضد العثمانيين وخصوصًا من حكومة البندقية التي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الإقليم الهام بشاطئيه وموانئه البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجي، وأنهم في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك. وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثاني استقراراً للحكم العثماني في ألبانيا[1].

وأما ما يتعلق بجبهة المجر، فقد استطاع العثمانيون في عام (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) أن يهزموا المجريين ويأسروا منهم سبعين ألف جندي وأن يستولوا على بعض المواقع، ثم تقدم لفتح بلغراد عاصمة الصرب، ولكنه أخفق في محاولته وسرعان ما تكون حلف صليبي كبير باركه البابا، واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوروبا كلها. وشمل الحلف البابوية والمجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق وجنوة والبندقية والإمبراطورية البيزنطية ودوقية برجنديا، وانضمت إلى الحلف أيضًا كتائب من الألمان والتشيك. وأعطيت قيادة قوات الحلف الصليبي إلى قائد مجري قدير هو يوحنا هنيادي. وقد قاد هنيادي القوات الصليبية البرية وزحف جنوبًا واجتاز الدانوب وأوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح[2]، وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات في «سيزجادن» وذلك في شهر يوليو عام (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) تنازل فيها عن الصرب، واعترف «بجورج برانكوفيتش» أميرًا عليها. كما تنازل السلطان مراد عن

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٦).
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٤٦).



الدولة العثمانية
فى عهد مراد الثانى
سنة ٨٤٨هـ

الأفلاق للمجر، وافتدى زوج ابنته «محـمود شلبى» الذى كان قائدًا عامًا للجيوش العثـمانية، بمبلغ ٦٠ ألف دوقيـة، وقد حررت هذه المعاهدة باللغـتين العثمـانية، والمجرية، وأقـسم «لاديسلاس» ملك المجر على الإنجـيل كما أقـسم السلطان مراد بالقرآن على أن تراعى شروط المعاهدة بذمة وشرف.

وحين فرغ مراد من عقد الهـدنة مع أعدائه الأوروبيين عاد إلى الأناضول وفجع بموت ابنه الأمير علاء واشتد حزنه عليه، وزهد فى الدنيا والملك ونزل عن السلطنة لابنه محمد، وكـان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره، ولصـغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأى والنظر من رجال دولتـه ثم ذهب إلى مغنيسيا فى آسـيا الصغرى ليقضى بقية حياته فى عزلة وطمأنينة، ويتفرغ فى هذه الخلوة إلى عبادة الله والتأمل فى ملكوته بعـد أن اطمأن إلى اسـتـتباب الأمن والسـلام فى أرجاء دولتـه، ولم يستـمتع السلطان طويلاً بهذه الخلوة والعـبادة[١]، حيث قام الكارديـنال سيزارينى وبعض أعـوانه بالدعوة إلى نقض العـهـود مع العثـمانيـين وطردهم عن أوروبا، خصوصًا وأن العرش العثمانـى قد تركه السلطان مراد لابنه الفتى الذى لا خبرة له ولا خطر منه، وقد اقتنع البابا أوجـين الرابع بهذه الفكرة الشيطانية[٢]، وطلب من النصارى نقض العهـد، ومهاجمة المسلمين وبين للنصـارى أن المعاهدة التى عقدت مع المسلمين باطـلة لأنها عقـدت بدون إذن البابا وكيل المسـيح فى الأرض، وكان الكاردينال سيزارينـى عظيم النشاط دائم الحركة لا يكل عن العـمل، يجد ويسعى للقضاء على العـثمانيين، ولذلك كان يزور ملوك النصارى وزعـماءهم ويحرضهم على نقض المعاهدة مع المسلمـين ويقنع كل من يعترض عليه نكـث المعاهدة ويقول له: إنه باسم البابا يبرئ ذمتهم من نكثـها ويبارك جنودهم وأسلحتهم، وعليهم أن يتبعوا طريقه فإن طريق المجد والخلاص، ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشى الإثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه[٣].

لقد نقض النصارى عـهودهم، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسـلمين، وحاصروا مدينة «فارنا» البلغارية الواقعة على سـاحل البحر الأسود، والتى كانت قد تحررت

(١) انظر: محمد الفاتح، ص(٤٢، ٤٣).
(٢) المصدر السابق نفسه، ص(٤٣).
(٣) انظر: المصدر السابق نفسه، ص(٤٤).

على أيدى المسلمين، ونقض العهود هو سَمْتُ ظاهر لأعداء هذا الدين، ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين قتالهم، بقول سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

لا عهود، ولا مواثيق يرعونها، كما هو طابعهم دائمًا. إنهم لا يتورعون عن مهاجمة أى أمة، أى إنسان يلمحون فيه ضعفًا، يقتلون ويذبحون[١]، وصدق الله القائل فى تصويرهم:

﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وعندما تحرك النصارى وزحفوا نحو الدولة العثمانية وسمع المسلمون فى أدرنة بحركة الصليبيين وزحفهم انتابهم الفزع والرعب، وبعث رجال الدولة إلى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر، وخرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضد الخطر الصليبى. واستطاع مراد أن يتفق مع الأسطول الجنوى لينقل أربعين ألفًا من الجيش العثمانى فى آسيا إلى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبى وبصره فى مقابل دينار لكل جندى.

وأسرع السلطان مراد فى السير فوصل وارنة فى نفس اليوم الذى وصل فيه الصليبيون.

وفى اليوم التالى نشبت المعركة بين الجيشين النصرانى والإسلامى وكانت عنيفة حامية، وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التى نقضها أعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده[٢].

واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركة رهيبة كاد يكون فيها النصر للنصارى نتيجة حميتهم الدينية وحماسهم الزائد إلا أن تلك الحمية والحماس الزائد اصطدم بالروح الجهادية لدى العثمانيين، والتقى الملك «لاديسلاس» ناقض العهود مع السلطان مراد الوفى بالعهود وجهًا لوجه واقتتلا، ودارت بينهما معركة رهيبة، تمكن السلطان المسلم من قتل الملك المجرى النصرانى، فقد عاجله بضربة قوية من

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص (٤١).
(٢) انظر: محمد الفاتح، سالم الرشيدى، ص (٤٥).

رمحه أسقطتـه من على ظهر جواده فأسرع بعض المجاهدين وجـزوا رأسه ورفعوه على رمح مهللين، مكبرين وفرحين[1]. وصاح أحد المجاهدين فى العدو: «أيها الكفـار هذا رأس ملككم» وكان لذلك المـنظر أثر شديد على جـموع النصـارى، فاستحوذ عليهم الفزع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية، بددت شملهم وهزموهم شـر هزيمة، وولى النصـارى مدبرين يدفع بعـضهم بعـضًا، ولم يطارد السلطان مراد عدوه واكتفى بهذا الحد من النصر وإنه لنصر عظيم[2].

كـانت هذه المعـركة فى سـهـول قـوصوه فى ١٧ أكـتـوبر ١٤٤٨م (٨٥٢هـ) واستمـرت المعركة ثلاثة أيام وانتهت بفوز سـاحق للعثمانيـين. وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجـر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التى تسـتطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين[3].

ولم يفارق السلطان مراد زهادته فى الدنيـا والملك، فنزل عن العرش مرة أخرى لابنه محمد وعاد إلى عزلته فى مغنيسيا كما يعود الأسد المنتصر إلى عرينه.

ولقد ذكـر لنا التاريخ مـجموعـة من الملوك والحكام الذين نزلوا عن عـروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الملك إلى العزلة، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ولكن لم يذكـر لنا أحد منهم نزل عن العـرش مرتين غيـر السلطان مراد، فـإنه لم يكد يذهب إلى معـتزله بـآسيـا الصغـرى حتى ثار الإنكشـارية فى أدرنة وشغبوا وهاجموا وماجوا وتمردوا وطغوا وأفسدوا، وكان السلطان محمد فتى يافعًا حديث السن وخشى بعض رجال الدولة أن يستـفحل الأمر ويعظم الخطر، ويتفاقم الشر، وتسوء العاقبـة فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليـتولى الأمر بنفسه.[4] وجاء الـسلطان مراد وقـبض على زمام الأمـر وخضع له الإنكشـارية وأرسل ابنه محـمد إلى مغنيـسيا حاكـمًا عليهـا بالأناضول، وبقى السلطان مـراد الثانى على العرش العثمانى إلى آخر يوم فى حياته، وقد قضاها فى الغزو والفتح[5].

---

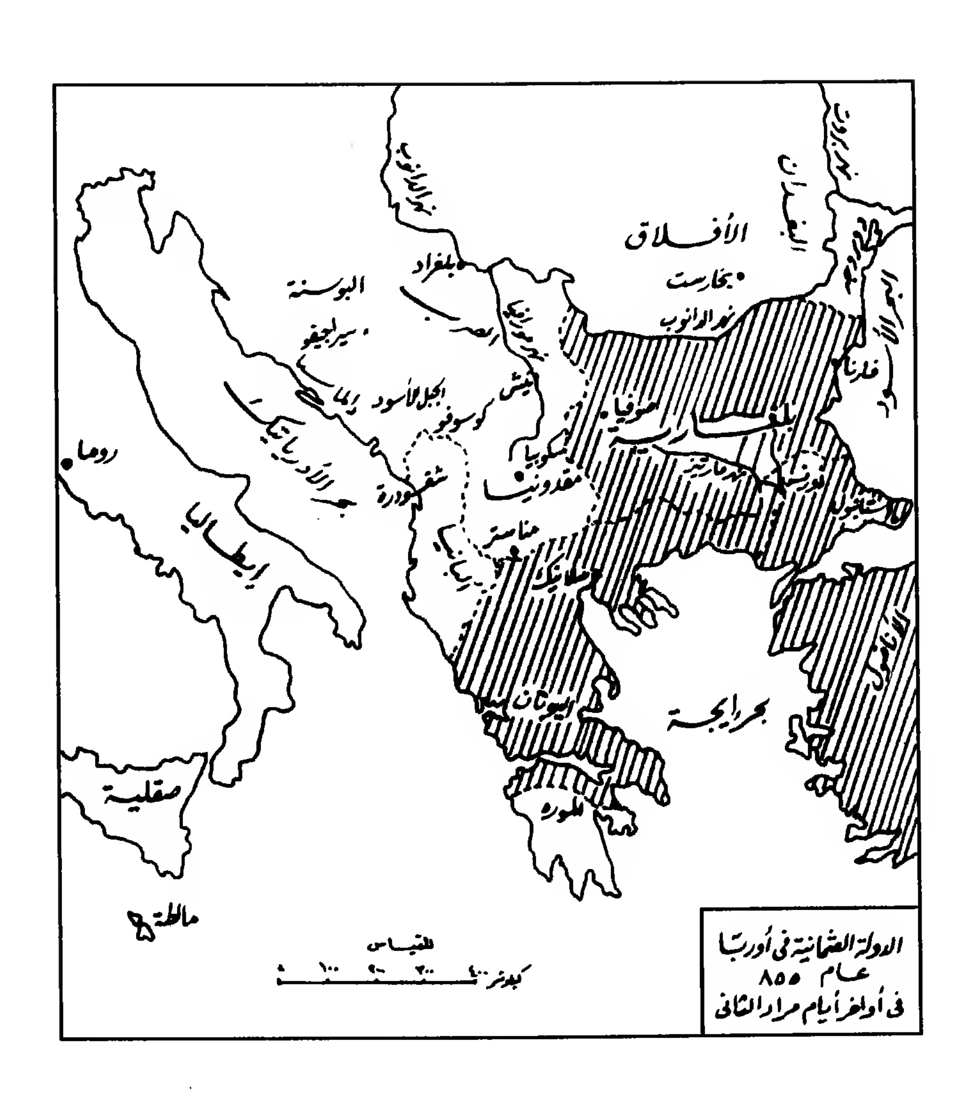
(١) انظر: محمد الفاتح، د.عبدالسلام عبدالعزيز، ص(٢٢).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (٤٦).

(٣) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٤٧).

(٤) انظر: محمد الفاتح، ص (٤٧).

(٥) السلطان محمد الفاتح، ص (٢٣).



الدولة العثمانية فى أوربا
عام ٨٥٥
فى أواخر أيام مراد الثانى

أولاً: مراد الثاني وحبه للشعراء والعلماء وفعل الخير:

يقول محمد حرب:

(مراد الثاني وإن كان مقلاً وكان ما لدينا من شعره قليلاً، لصاحب فضل على الأدب والشعر لا يجحد، لأنه نعمه حلّت على الشعراء الذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين فى كل أسبوع ليقولوا ما عندهم، ويأخذون بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان، فيستحسن أو يستهجن، ويختار أو يطرح، وكثيراً ما كان يسدّ عوز المعوزين منهم بنائلة الغمر أو بإيجاد حرفة لهم تدرّ الرزق عليهم حتى يفرغوا من هموم العيش ويتوفروا على قول الشعر، وقد أنجب عصره كثيراً من الشعراء)[١].

لقد حوّل القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية العلمية، ووصل به الأمر أن كان الشعراء يرافقونه فى جهاده[٢].

ومن أشعاره: (تعالوا نذكر الله لأننا لسنا بدائمين فى الدنيا)[٣].

كان سلطانًا عالمًا عاقلاً عادلاً شجاعًا، وكان يرسل لأهالى الحرمين الشريفين وبيت المقدس من خاصة ماله فى كل عام ثلاثة آلاف وخمس مائة دينار، وكان يعتنى بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء، مهد الممالك، وأمّن السبل، وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين[٤]، وقال عنه يوسف آصاف: (كان تقياً صالحًا، وبطلاً صنديدًا، محباً للخير، ميّالاً للرأفة والإحسان)[٥].

ثانيًا: وفاته ووصيته:

قال صاحب النجوم الزاهرة: فى وفيات عام ٨٥٥ هـ فى مراد الثانى:

(وكان خير ملوك زمانه شرقًا وغربًا، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد، وأفنى عمره فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، وغزا عدّة

---

(١)، (٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٢٤٦).

(٣) السلاطين العثمانيون الكتاب المصور، ص (٤٣).

(٤) انظر: تاريخ السلاطين آل عثمان للقرمانى، ص (٢٥).

(٥) تاريخ سلاطين آل عثمان، ص (٥٥).

غزوات، وفتح عـدّة فتوحات، وملك الحـصون المنيعة، والقـلاع والمدن من العدوّ المخذول.

على أنه كان منهمكًا فى اللذات التى تهواها النـفوس، ولعل حاله كقول بعض الأخيار -وقد سئل عن دينه- فقال: أُمزقه بالمعاصى وأُرقعه بالاستغفار، فهو أحق بعفو الله وكـرمه، فإن له المواقف المشهـورة، وله اليد البيضـاء فى الإسلام ونكاية العدوّ حتى قيل عـنه: إنه كان سياجًا للإسلام والمسلمـين -عفا الله عنه- وعوّض شبابه الجنة...)[1].

توفى السلطان فى قصر أدرنة عن عمر يناهز ٤٧ عامًـا وبناء على وصيته رحمه الله دفن فى جانب جامع مرادية فى بورصة.

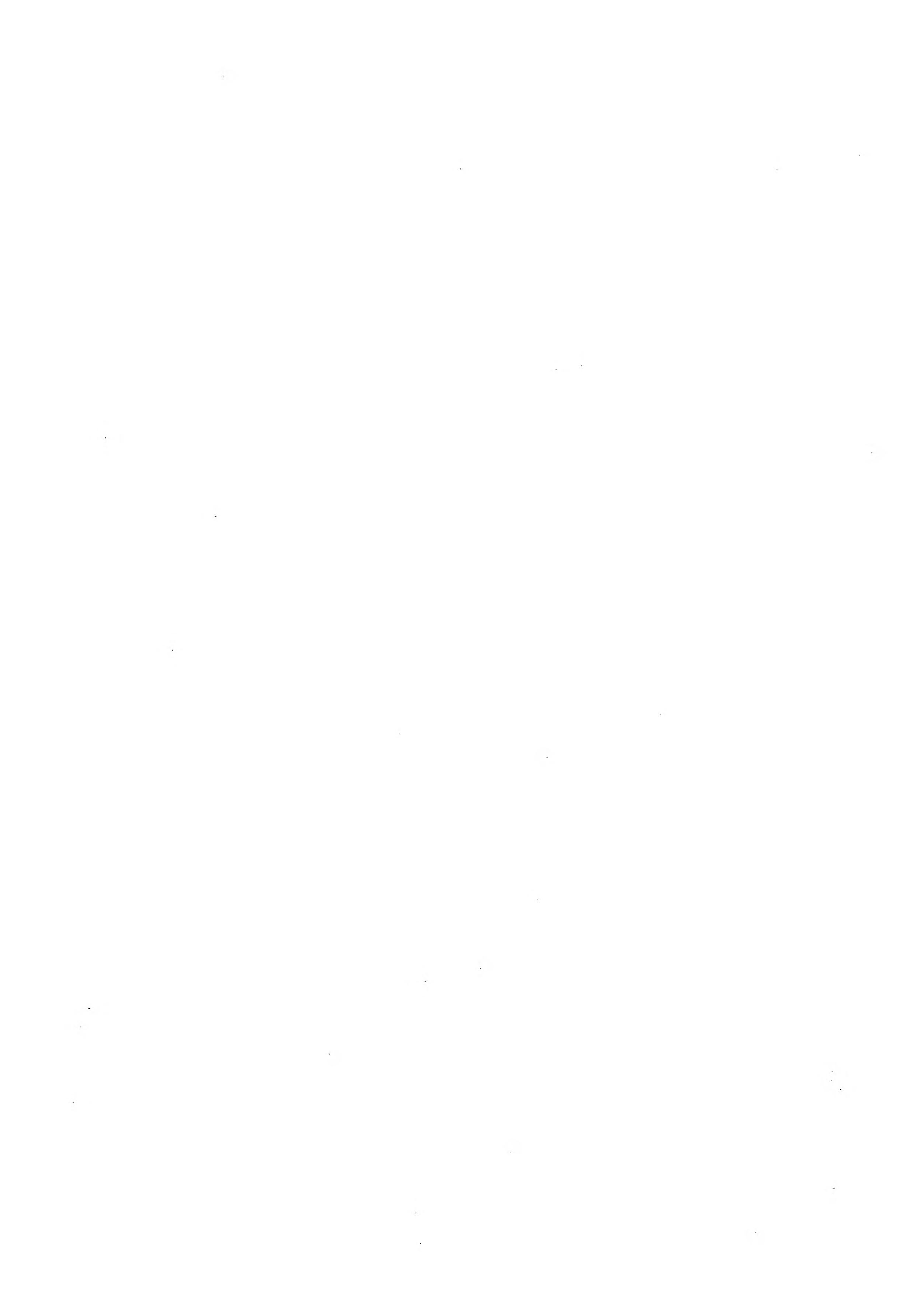
ووصى بأن لا يبنى على قبره شىء، وأن يعمل أمـاكن فى جوانب القبر يجلس فيها الحفاظ لقراءة القرآن الكريم، وأن يدفن فى يوم الجمعة فنفذت وصيته[2].

وترك فى وصيته شعرًا، بعد أن كان قلقًا يخشى أن يدفن فى قبر ضخم، وكان يريد ألاّ يبنى شىء على مكان دفنه، فكتبـها شعرًا ليقـول: فليأتِ يوم يرى الناس فيه ترابى[3].

لقد قـام السلطان مراد ببناء جـوامع ومدارس، وقصـور وقناطر، فمنهـا جامع أدرنة ذو ثلاث شرف وبنى بجـانب هذا الجامع مـدرسة وتكية يطعم فـيها الفـقراء والمساكين[4].

***

(١) النجوم الزاهرة (١٦/ ٣) لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى.
(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٤٣).
(٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص(٢٤٦).
(٤) انظر: السلاطين العثمانيون، ص(٤٣).



الفصل الثانى

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

المبحث الأول

السلطان محمد الفاتح

(٨٥٥هـ - ٨٨٦هـ = ١٤٥١م - ١٤٨١م)

هو السلطان محمد الثانى المولود فى (٨٣٣هـ - ١٤٢٩م) ويعتبر السلطان العثمانى السابع فى سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبى الخيرات، حكم ما يقرب من ثلاثين عامًا كانت خيرًا وعزة للمسلمين(١). تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده فى ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة. ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته فى كثير من العلوم التى كان يتلقاها فى مدرسة الأمراء، وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته فى الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيرًا فى التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية.

وقد انتهج المنهج الذى سار عليه والده وأجداده فى الفتوحات، ولقد برز بعد توليه السلطة فى الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيرًا بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف، وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوافرة فى ذلك العصر.

وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين فى أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال، وطور البلاط السلطانى وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم فى استقرار الدولة والتقدم إلى الأمام.

---

(١) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٢٥٣).

وبعد أن قطع أشواطًا مثمرة فى الإصلاح الداخلى تطلع إلى المناطق المسيحية فى أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة فى تحقيق أهدافه، منها الضعف الذى وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التى عمت جميع مناطقها ومدنها، ولم يكتف السلطان محمد بذلك؛ بل إنه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجى الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامى لفترة طويلة من الزمن، والتى طالما اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية[1].

فتح القسطنطينية:

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست فى عام ٣٣٠ م على يد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الأول[2]، وقد كان لها موقع عالمى فريد حتى قيل عنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»[3]، ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم، وهى من أكبر المدن فى العالم وأهمها[4]. عندما دخل المسلمون فى جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها فى عدة مواقف، من ذلك: ما حدث أثناء غزوة الخندق[5]، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعًا فى أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ: **«لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»**[6].

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبى سفيان فى أولى الحملات الإسلامية عليها سنة ٤٤ هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى فى عهده حظيت بنفس النتيجة.

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص (٤٣).

(٢) انظر: أوروبا فى العصور الوسطى، سعيد عاشور، ص(٢٩).

(٣) فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د. محمد مصطفى، ص (٣٦ - ٤٦).

(٤) المجتمع المدنى (الجهاد ضد المشركين)، د. أكرم ضياء العمرى، ص (١١٥).

(٥)، (٦) أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٥).

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهى تلك الحملة التى تمت فى أيام سليمان بن عبدالملك سنة ٩٨هـ[١].

واستمرت المحاولات لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسى الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها وتهديدها، مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التى تمت فى أيام هارون الرشيد[٢] سنة ١٩٠هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية فى آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة، التى امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى. كما أن زعيمها ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) استطاع أن يهزم إمبراطور الروم ديمونوس فى موقعة ملاذ كرد عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧٠م) ثم أسره وضربه وسجنه، وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقى، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من إمبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية. وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى والتى استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجة غربًا وإضعاف الإمبراطورية الرومانية.

وفى مطلع القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى خلف العثمانيون سلاجقة الروم[٣]، وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها فى أيام السلطان بايزيد «الصاعقة» الذى تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٣م[٤]، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطى لتسليم المدينة سلمًا إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامى عن القسطنطينية، وفى الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضى العثمانية وأخذت

(١) ابن خلدون العبر (٣/ ٧٠)، تاريخ خليفة بن خياط، ص (٣١٥).

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٤٥٨، تاريخ الطبرى (١٠/ ٦٠)، الكامل ابن الأثير، (٦/ ١٨٥، ١٨٦).

(٣) قيام الدولة العثمانية، ص (٤٦).

(٤) تاريخ سلاطين آل عثمان، ص (١٨).

تعيث فسادًا، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتى أسر فيها بايزيد (الصاعقة) ثم مات بعد ذلك فى الأسر سنة ١٤٠٢م[١]، وكان نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتًا، وتوقف التفكير فى فتح القسطنطينية إلى حين.

وما أن استقرت الأحوال فى الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففى أيام السلطان مراد الثانى الذى تولى الحكم فى الفترة ٨٢٤هـ - ٨٦٣هـ/ ١٤٢١ - ١٤٥١م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين فى أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطى فى أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة فى صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان[٢]، وبهذه الطريقة نجح فى إشغاله فى هدفه الذى حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا فى زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد.

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية فى حياة أبيه، ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية فى الظروف المختلفة،كما كان على إطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية؛ بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة فى العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالى فمنذ أن ولى السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م[٣] كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر فى فتحها، ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام، ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقى والورع، وكان محباً للعلم والعلماء ومشجعًا على نشر العلوم، ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التى تلقاها منذ الصغر، بتوجيهات من والده، وجهود الشخصيات العلمية القوية التى أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم، ممن أشرفوا على رعايته[٤].

---

(١) (٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، د.عبدالعزيز العمرى، ص (٣٥٨).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٥٩).

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.على حسون، ص (٤٢).

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته، ومن أخصهم العالم الرباني «أحمد بن إسماعيل الكوراني» وكان مشهودًا له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه في عهد السلطان «مراد الثاني» والد «الفاتح». وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني -الفاتح- أميرًا في بلدة «مغنيسيا» وقد أرسل إليه والده عددًا من المعلمين ولم يمتثل أمرهم، ولم يقرأ شيئًا، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، فطلب السلطان المذكور، رجلاً له مهابة وحدّة، فذكروا له المولى «الكوراني»، فجعله معلمًا لولده وأعطاه قضيبًا يضربه بذلك إذا خالف أمره. فذهب إليه، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا، حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة...»[1].

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، وبالأخص هذا العالم الفاضل، الذي كان يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسمه، ويصافحه ولا يقبل يده؛ بل السلطان يقبل يده. من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح، وأن يكون مسلمًا مؤمنًا بحدود الشريعة، مقيدًا بالأوامر والنواهي معظمًا لها ومدافعًا عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقيًا صالحًا يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين[2].

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما:

١- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

٢- الإيحاء دومًا لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»،[3] لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور[4].

---

(١) كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص (٥٢) نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية ص (٤٣).

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون، ص (٤٣).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥).

(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٥٩).

أولاً: الإعداد للفتح:

بذل السلطان محمد الثانى جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل فى ذلك جهودًا كبيرة فى تقوية الجيش العثمانى بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد[1]، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول فى تلك الفترة، كما عنى عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة، وبمختلف أنواع الأسلحة التى تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذى يفتح القسطنطينية، عسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير فى تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقى وفق أوامر الله.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة (روملى حصار) فى الجانب الأوروبى على مضيق البسفور فى أضيق نقطة منه مقابل القلعة التى أسست فى عهد السلطان بايزيد فى البر الأسيوى، وقد حاول الإمبراطور البيزنطى ثنى السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد به إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ مترًا، وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان فى عبور السفن من شرقى البسفور إلى غربه، وتستطيع نيران مدافعهما منع أى سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التى تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التى تستطيع دعم المدينة عند الحاجة[2].

أ- اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة:

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التى أخذت اهتمامًا خاصًا منه حيث أحضر مهندسًا مجريًا يدعى

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص (١٦١).

(٢) انظر: سلاطين آل عثمان، ص (٢٦).

(أوربان) كان برعًا فى صناعة المدافع، فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطانى المشهور، والذى ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها[1].

ب- الاهتمام بالأسطول:

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثمانى حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة، ليكون مؤهلاً للقيام بدوره فى الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التى لا يكتمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة، وقد ذكر أن السفن التى أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة[2].

ج- عقد معاهدات:

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق، ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبى)، كما عقد معاهدات مع (المجر) و(البندقية) وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلى على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة فى الدفاع عن القسطنطينية[3] مشاركة لبنى عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم، ومواثيقهم مع المسلمين.

فى هذه الأثناء التى كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استماتت الإمبراطور البيزنطى فى محاولاته لإثنائه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره[4]، ولكن السلطان كان عازمًا

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦١).

(٢) انظر: محمد الفاتح، سالم الرشيدى، ص (٩٠).

(٣) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص (٥٨).

(٤) انظر: فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص (٦٩).

على تنفيذ مـخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبـراطور البيزنطى شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية، وعلى رأسـها البابا زعـيم المذهب الكاثوليكى، فى الوقت الذى كـانت فيـه كنائس الدولة البيـزنطيـة وعلى رأسهـا القسطنطـينية تابعـة للكنيسـة الأرثوذكسـية وكان بينهـما عداء شديد، وقـد اضطر الإمبراطور لمجـاملة البابا بأن يتقرب إليه ويـظهر له استعداده للعمل على توحـيد الكنيسة الأرثوذكسيـة الشرقية لتصبح خـاضعة له، فى الوقت الذى لم يكن الأرثوذكس يرغـبون فى ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القـسطنطينية، خطب فى كنيسة آيا صوفيـا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكـنيستين، مما أغضب جـمهور الأرثوذكس فى المدينة، وجـعلهم يقومون بحـركة مـضادة لهذا الـعمل الإمبـراطورى الكاثوليكى المشتـرك، حتى قـال بعض زعمـاء الأرثوذكس: (إننى أفضل أن أشـاهد فى ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية)[1].

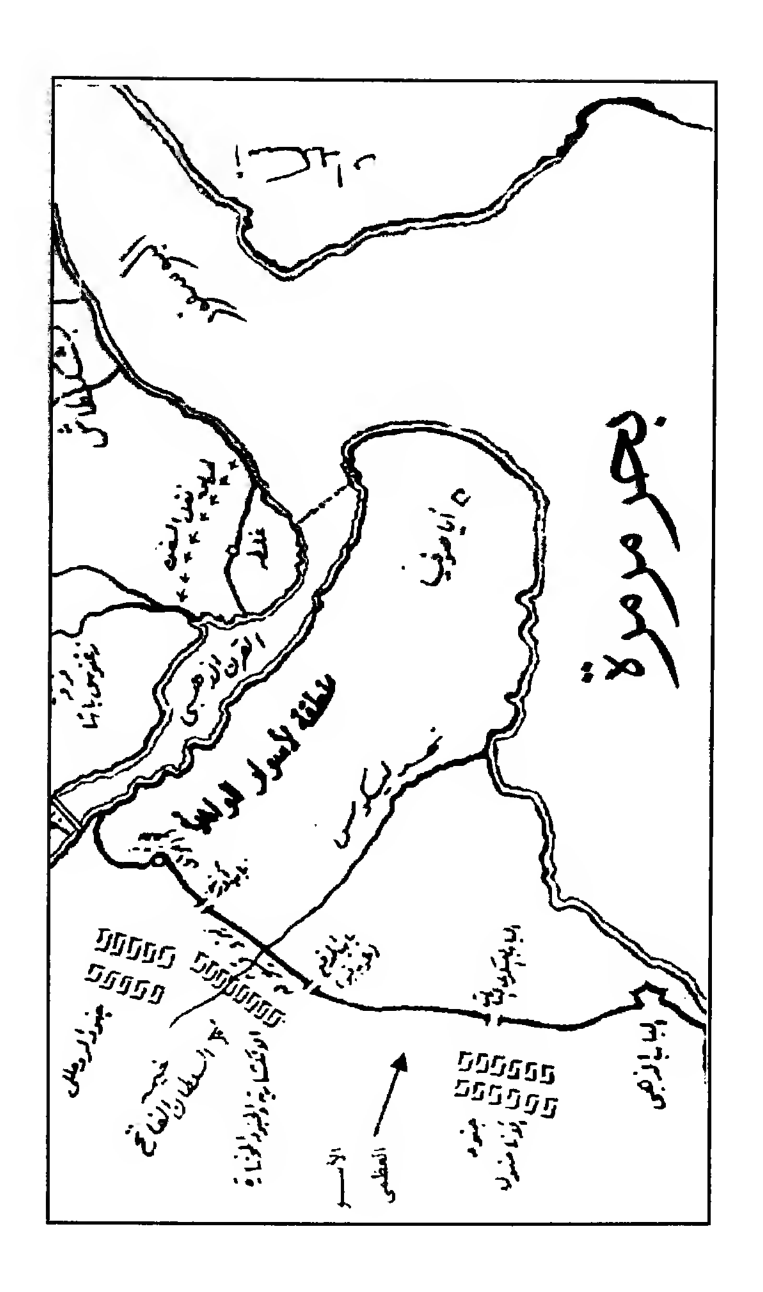
ثانيًا: الهجوم:

كانت القسطنطينيـة محاطة بالمياه البحـرية فى ثلاث جبهات، مضيق البـسفور، وبحر مرمـرة، والقرن الذهبى الذى كان محمـياً بسلسلة ضخمـة جداً تتحكم فى دخول السفن إليه، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانا يحيطان بها من الناحية البرية من شـاطىء بحر مرمرة إلى القرن الذهبى، يتخللـهما نهر ليكوس، وكان بين السـورين فضاء يبلغ عرضـه ٦٠ قدمًا ويرتفع السـور الداخلى منها ٤٠ قدمًـا، وعليه أبراج يصل ارتـفاعهـا إلى ٦٠ قدمًـا، وأما السـور الخارجى فيـبلغ ارتفاعه قرابة خـمس وعشرين قدمًا وعليه أبراج مـوزعة مليئة بالجند[2]، وبالتالى فإن المدينة من الناحيـة العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصـينًا، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضـافة إلى التحصينات الطبيعيـة، وبالتالى فإنه يصعب اختراقهـا، ولذلك فقد استعصت علـى عشرات المحاولات العسكرية لاقتـحامها، ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة.

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (٨٩).

(٢) انظر: سلاطين آل عثمان، ص (٢)، محمد الفاتح، ص (٩٦).


بحر مرمرة
منطقة الأسوار
القرن الذهبي
غلطة

كان السلطـان الفاتح يكمل الاستـعدادات للقـسطنطينية ويعرف أخـبارها ويجـهز الخرائط اللازمة لحـصارها، كما كان يقوم بنفـسه بزيارات استطلاعية يشاهـد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها[1]، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقـسطنطينـية لكـى تكون صـالحة لجـر المدافع الـعمـلاقـة خـلالهـا إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، فى مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشـارف القسطنطينية فى يوم الخـميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م، فجمع الجنـد وكانوا قرابة مائتين وخـمسين ألف جندى، فخـطب فيهم خطبة قـوية حثـهم فيـها على الجهـاد وطلب النصر أو الـشهادة، وذكـرهم فيـها بالتضحـية وصدق القتـال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القـرآنية التى تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحـاديث النبوية التى تبشر بفتح القسطنـطينية وفضل الجيش الفاتح لهـا وأميره، وما فى فـتحها من عـز للإسلام والمسلمين، وقـد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء[2].

وكان العلماء مبثوثين فى صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم، مما أثر فى رفع معنوياتهم حتى كان كل جندى ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدى ما عليه من واجب[3].

وفى اليـوم التالى قام السـلطان بتوزيع جـيشه البـرى أمام الأسـوار الخارجـية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البرى حول مختلف الجهات، كمـا أقام الفاتح جيوشًا احـتياطية خلف الجيوش الرئيـسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومـن أهمها المدفع السلطانى العمـلاق الذى أقيم أمام باب طب قابى، كما وضع فـرقًا للمراقبة فى مختلف المواقع المرتفـعة والقريبة من المدينة، وفى نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية فى المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلـى القرن الذهبى بسبب وجود السلسلة الضـخمة التى منعت

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (٨٢)؛ فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص (٥٧).

(٢) انظر: سلاطين آل عثمان، ص (٢٤، ٢٥).

(٣) انظر: الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٤).

أى سفينة من دخوله؛ بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الأسطول العثمانى أن يستولى على جزر الأمراء فى بحر مرمرة(١).

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، وأحكموا التحصينات، وأحكم الجيش العثمانى قبضته على المدينة، ولم يخلُ الأمر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الأيام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة، وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصًا من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير فى إيقاع الرعب فى قلوب البيزنطيين، وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن، وكان يقودها القائد الجنوى جوستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة، واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة، وكان لوصول هذه القوة أثر كبير فى رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جوستنيان قائدًا للقوات المدافعة عن المدينة(٢).

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطى السلسلة الضخمة التى تتحكم فى مدخل القرن الذهبى والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا فى تحقيق مرادهم فى البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة(٣).

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين، ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٩٨)؛ العثمانيون والبلقان، ص (٨٩).
(٢) انظر: العثمانيون والبلقان، د. على حسون، ص (٩٢).
(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١٢٠).

الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الإمبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف(١).

ثالثًا: مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صمودًا بطوليًا فى الدفاع، وحاول الإمبراطور البيزنطى أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضًا مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التى قدمها، ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالبًا تسليم المدينة تسليمًا(٢)، وأنه فى هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: (فليسلم لى إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشى لن يتعرض لأحد فى نفسه وماله وعرضه، ومن شاء بقى فى المدينة وعاش فيها فى أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها حيث أراد فى أمن وسلام أيضًا)(٣).

كان الحصار لا يزال ناقصًا ببقاء مضيق القرن الذهبى فى أيدى البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثمانى كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف فى أعقاب كل قصف مدفعى، وفى يوم ١٨ أبريل(٤) تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة فى الأسوار البيزنطية عند وادى ليكوس فى الجزء الغربى من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التى ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جوستنيان استماتوا فى الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضعيفة، ومع كثرة السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١٠٠).

(٢) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص (٥٨).

(٣) محمد الفاتح، عبدالسلام فهمى، ص (٩٢).

(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٧).

الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب فى قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم[١].

وفى اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبى بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعًا صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت فى تحقيق مهمتها[٢].

رابعًا: عزل قائد الأسطول العثمانى وشجاعة محمد الفاتح:

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التى حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهودًا كبيرة لمنعها، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل، وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له: (إما أن تستولى على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق فى ذلك فلا ترجع إلينا حيًّا)[٣]، لكن السفن الأوروبية نجحت فى الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالى غضب السلطان محمد الفاتح غضبًا شديدًا فعزل قائد الأسطول[٤] بعدما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه، وعنف محمد الفاتح قائد الأسطول بالطه أوغلى واتهمه بالجبن، وتأثر بالطه أوغلى لهذا وقال:

(إنى أستقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمنى أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت أنا ورجالى بكل ما كان فى وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة)[٥].

---

(١) انظر: محمد الفاتح، عبدالسلام فهمى، ص (١٢٣).

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٨).

(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١٠١).

(٤) انظر: مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان، ص (١٨٠).

(٥) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١٠٣).

أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا[1].

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده، وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره، وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبالطه أوغلى بأعلى صوته: يا قبطان! يا قبطان! ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم فى الهجوم دون أن يؤثروا فى السفن تأثيرًا قويًّا[2].

كانت للهزائم البحرية للأسطول العثمانى دور كبير فى محاولة بعض مستشارى السلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها، وبالتالى رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر فى قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب، وفى الوقت نفسه كان يفكر بجدية فى إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبى خصوصًا أن الأسوار من ناحية القرن الذهبى متهاوية، وبالتالى سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة، وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر فى الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها[3].

خامسًا: عبقرية حربية فذة:

لاحت للسلطان فكرة بارعة وهى نقل السفن من مرساها فى بشكطاش إلى القرن الذهبى، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين مبتعدًا عن حى غلطة خوفًا على سفنه من الجنويين، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضًا مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهادًا وتلالاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

---

(١) (٢) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١٠٣).
(٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٩).

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثانى فمهدت الأرض وسويت فى ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن(١).

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت فى القرن الذهبى، وتمكن العثمانيون فى تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها فى القرن الذهبى على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التى جرت فى الليل بعيدًا عن أنظار العدو ومراقبته(٢).

كان هذا العمل عظيمًا بالنسبة للعصر الذى حدث فيه بل معجزة من المعجزات، تجلت فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تم. لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة. ويرجع الفضل فى ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همة السلطان وذكائه المفرط، وعقليته الجبارة، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوافر الأيدى العاملة التى قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

وقد تم كل ذلك فى ليلة واحدة، واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية(٣)،

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبد السلام فهمى، ص (١٠٠).

(٢) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٠).

(٣) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمى، ص (١٠٢).

فى القرن الذهبى، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهى تسيطر على ذلك المعبر المائى، ولم يعد هناك حاجز مائى بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين[1]، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشىء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثانى بهذا العمل الإسكندر الأكبر)[2].

ظهر اليأس فى أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: «ستسقط القسطنطينية عندما ترى السفن تمخر اليابسة»[3]، وكان لوجود السفن الإسلامية فى القرن الذهبى دور كبير فى إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكى يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبى؛ إذ إنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها فى السابق كانت تحميها المياه، مما أوقع الخلل فى الدفاع عن الأسوار الأخرى[4].

وقد حاول الإمبراطور البيزنطى تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثمانى فى القرن الذهبى إلا أن محاولاته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أحبطوا كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون فى دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع، وحاولوا تسلّق أسوارها، وفى الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة فى بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم، ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد فى مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم، وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس[5].

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٠).

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا، ص (١٣٥).

(٣)، (٤) انظر: محمد الفاتح، ص (١٠٦).

(٥) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧١).

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبى، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها فى القرن الذهبى والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تمامًا[1].

سادسًا: اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونيه:

عقد الملك قسطنطين ومعاونوه ومستشاروه ورجال النصرانية فى المدينة اجتماعًا، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدات من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية، ولعل الجيوش النصرانية أن تأتى، فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأى وأصر على أن يقاوم إلى آخر لحظة، ولا يترك شعبه فى المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحدًا، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبدًا، واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة[2]، ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وما حولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها.

ثامنًا: الحرب النفسية العثمانية:

ضاعف السلطان محمد الثانى الهجوم على الأسوار وجعله مركزًا وعنيفًا، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضًا لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفانى، وكان أكثر ما يرعب جنود الإمبراطور قسطنطين صيحاتهم وهى تشق عنان السماء وتقول: (الله أكبر الله أكبر) فتنزل عليهم كالصواعق المدمرة[3].

وشرع السلطان محمد الفاتح فى نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع فى دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء، وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها فى الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧١).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (١١٦).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٠٦).

للفرار، واتخـذت من أسوار غلطة ملجـأ لها، وظل الهجـوم العثمـانى البرى فى موجات خـاطفة وسريعة هجمـة تلو الأخرى، وكان السلطان محـمد الفاتح يوالى الهجمـات وإطلاق القذائف فى البر والبحر دون انقطاع ليـلاً ونهاراً من أجل إنهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أى قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مـرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهودة تثور لأى سبب، وأصـبح كل واحد من الجنـود ينظر إلى صاحـبه ويلاحظ على وجـهه علامات الذل والهزيمة والفشل، وشـرعوا يتحدثون علنًا عن طرق النجاة والإفلات بأرواحهم، وما يتوقعونه من العثمانيين إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

واضطر الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مؤتمر ثانٍ، اقتـرح فيه أحد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجى، وبينما هم فى مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العـثمـانيين شنوا هجـومًا شـديدًا مكثفًـا على وادى ليكونس، فـترك قـسطنطين الاجتـماع ووثب على فـرسه، واسـتدعى الجند الاحـتيـاطى ودفع بهم إلى مكان القتال، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون[١].

وكان السلطان محمد -رحمه الله- يفاجىء عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصـاب، وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو[٢].

ففى المراحل المتقدمة من الحـصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجـيبة فى محاولة دخول المدينة حـيث عملوا على حفـر أنفاق تحت الأرض من مناطق مخـتلفة إلى داخل المدينة، وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتـدريج، فأسرع الإمـبراطور بنفســه ومعه قـواده ومسـتشاروه إلى ناحـية الصوت، وأدركوا أن العثـمانيين يقومون بحفـر أنفاق تحت الأرض، للوصول إلى داخل المدينة، فقـرر المدافعون الإعداد لمواجـهتها بحـفر أنفاق مماثلة مقـابل أنفاق المهاجمين لمواجـهتهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثـمانيون إلى الأنفاق التى

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٠٨).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (١٠٨).

أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدى إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر، وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا[1].

لكن هذا الفشل لم يفت فى عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفى مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين (أكرى فبو) وشاطىء القرن الذهبى، وكانت مكانًا ملائمًا للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون هى أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيرًا ما كان يخيل لهم أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملأون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك فى فزع ويقولون: (هذا تركى، . . . ، هذا تركى) ويجرون هربًا من أشباح يحسبونها أنها تطاردهم، وكثيرًا ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رآها أحدهم بعينى رأسه، وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم (سكارى وما هم بسكارى)، فريق يجرى، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر فى وجوه البعض الآخر فى عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً، فإن هذه الأنفاق التى حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقًا واحتراقًا فى باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم فى بعض هذه المحاولات فى أسر الروم، فقطعت رءوسهم وقذف بها إلى معسكر العثمانيين[2].

مفاجأة عسكرية عثمانية:

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد فى محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٢).
(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١١٠).

وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال فى كل دور من أدوارها، وكان الذين فى الدور العلوى من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب فى قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد، واستطاع بعض المسلمين ممن فى القلعة تسلق الأسوار ونجحوا فى ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها، وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب[1].

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع: غدًا نصنع أربعًا أخرى[2].

زاد الحصار وقوى واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعًا ٢٤ مايو داخل قصر الإمبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح فى الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكى يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الإمبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار فى قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وأخذت الإشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ما حدث فى يوم ١٦ جمادى الأولى الموافق ٢٥ مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم)، وأخذوا يتجولون

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١٤٤).

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٢٢).

به فى ضواحى المدينة، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا فى ذلك شؤمًا ونذيرًا بالخطر، وتأثر سكان المدينة وخصوصًا المدافعين عنها، وحدث فى اليوم التالى ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشاءم البطريق، وذهب إلى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط فى يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الإمبراطور حتى أغمى عليه[١].

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها فى دك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض، التى يئس المدافعون من إزالتها، وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة فى أى لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد[٢].

ثامنًا: المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين:

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام؛ فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاءون بأمان[٣]، وأن تحقن دماء الناس فى المدينة ولا يتعرضوا لأى أذى ويكونوا بالخيار فى البقاء فى المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الإمبراطور إلى رأى القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: (إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية، أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس فى حياته، فإما أن يحفظ

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١١٨).

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٥).

(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص (١١٩).

عرشـه أو يدفن تحت أسوارها)[١]، فلما وصلت الرسالة إلى الفـاتح قال: (حسنًا عن قريب سيكون لى فى القسطنطينية عرش أو يكون لى فيها قبر)[٢].

وعـمـد السلطان بعـد اليـأس من تسليم المدينة صلحًـا إلى تكثـيف الهـجـوم وخصوصًـا القصف المدفعى على المدينة، حتى أن المدفع السلطانى الضـخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشغلين له وعلى رأسهم المهندس المجرى أوربان الذى تولى الإشراف على تصمـيم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجـراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون فى ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمـدينة مرة أخـرى، بل تمكنت من توجيـه القـذائف بحيث تسـقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع[٣].

تاسعًا: السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماعًا لمجلس الشورى:

عقد السلطان محمـد الفاتح اجتماعًا ضم مستشاريه وكـبار قواده بالإضافة إلى الشيـوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجـتمعين الإدلاء بآرائهم بكـل صراحة دون تردد، فأشـار بعضـهم بالانسحـاب ومنهم الوزير خليل باشا الـذى دعا إلى الانسحـاب وعدم إراقـة الدماء والتـحذير من غـضب أوروبا النصرانيـة فيـما لو استـولى المسلمون على المدينة، إلـى غير ذلك من المبـررات التى طرحهـا، وكان متهـمًا بمواطئة البيـزنطيين ومحاولة التـخذيل عنهم[٤]، وقد قام بعـض الحضور بتشجـيع السلطان على مواصلة الهجـوم على المدينة حتى الفتح واستـهان بأوروبا وقواتهـا، كمـا أشار إلى تحمس الجند لإتمـام الفتح، وما فى التـراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى (زوغنوش باشا) وهو من أصل ألبانى، كان نصـرانياً فأسلم حيث هون من شـأن القوات الأوروبية على السلطان[٥].

---

(١) انظر: محمد الفاتح، عبدالسلام فهمى، ص (١١٦).

(٢)، (٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٦).

(٤) انظر: فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص (١٠٣).

(٥) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٧).

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت: (ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز فى قعدته وصاح فى لغة تركية تشوبها لكنة أرناؤوطية: حاشا وكلا أيها السلطان، أنا لا أقبل أبدًا ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع. وأحدث هذا الاستهلال وقعًا عميقًا فى نفوس الحاضرين، وخيم السكون على المجلس لحظة، ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال: إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران. إن جيش الإسكندر الكبير الذى قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولى على تلك الأراضى العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن ما للدول الغربية هذه؟ وهل هى الدول اللاتينية التى شغلها ما بينها من خصام وتنافس، هل هى دول البحر المتوسط التى لا تقدر على شىء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفى الأيدى بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

يا صاحب السلطنة، أما وقد سألتنى رأيى فلأعلنها كلمة صريحة: يجب أن تكون قلوبنا كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمرًا فواجب علينا أن نتممه، ويجب أن تزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة. لا أعرف شيئًا غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئًا غير هذا. . .)(١).

وبدت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور: إن زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال، وأنا على رأيه يا سلطانى. ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكورانى عن رأيهما. وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على رأى زوغنوش باشا

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص(١٢٢).

وقالا: (يجب الاستمرار فى الحرب، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر)[1].

وسرت الحمية والحماس فى جميع الحاضرين، وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول: من كان من أجدادى فى مثل قوتى؟[2].

لقد أيد العلماء الرأى القائل بمواصلة الجهاد، كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته فى مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة، وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك[3].

عاشرًا: محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:

فى يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى/ ٢٧ من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه، لعل الله أن ييسر لهم الفتح، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه وأوضاع المدافعين عنها فى النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثمانى، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية فى قتال الأعداء، كما بعث إلى آل غلطة التى وقفت على الحياد مؤكدًا عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنًا لهم الوفاء بعهده معهم، وأنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث. وفى مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون نارًا كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير[4]، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت فى معسكر العثمانيين، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدمًا، مما أوقع الرعب فى قلوب الروم، وفى اليوم

---

(١) (٢) انظر: محمد الفاتح، ص (١٢٢).

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد، ص (١٦٤).

(٤) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص (٦٠).

التالى ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمى البيزنطيين بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقدًا وموجهًا ومذكرًا بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد[١].

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد، والثواب الجزيل من الله تعالى، وستسد دسائس هذه المدينة التى طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين، وسيكون لأول جندى ينصب راية الإسلام[٢] على سور القسطنطينية الجزاء الأوفر والإقطاعات الواسعة.

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة فى سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية، وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصارى ويقولون للمجاهدين: لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة فى دار أبى أيوب الأنصارى، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث فى نفوسهم أشد الحماس والحمية[٣].

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: «إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا، أن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون...)[٤].

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٨).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (١٢٥).

(٣)، (٤) انظر: المصدر السابق نفسه (١٢٦).

وفى هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطى يـجمع الناس فى المدينة لإقامة ابتهال عام، دعا فيه الرجال والنساء والصـبيان للدعاء والتضرع والبكاء فى الكنائس على طريقة النصارى، لعله أن يستجاب لهم فتنجوا المدينة من هذا الحصار، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها، أكد فيها عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو، والاستماتة فى حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كـما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحـاضرين، كما صلى الإمبـراطور ومن معه من النصـارى الصلاة الأخـيرة فى كنيسـة آيا صوفيـا أقدس الكنائس عندهم[1]، ثم قصد الإمبراطور قصـره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واسـتصفحهم، وكان مـشهداً، مؤثراً وقد كتب مـؤرخو النصارى عن هذا المشهد، فقـال من حضره: (لو أن شخصًا قلبه من خشب أو صـخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر)[2].

وتوجه قـسطنطين نحو صورة (يزعـمون أنها صـورة المسيح) معلقـة فى إحدى الغرف فـركع تحتـها وهمـهم ببعض الدعوات ثـم نهض ولبس المغفـر على رأسه وخـرج من القـصر عند نحـو منتـصف الليل مع زمـيله ورفـيقـه وأمـينه المؤرخ فرانتزتس، ثم قاما برحلة تفقدية لقـوات النصارى المدافعة، ولاحظوا حركة الجيش العثمـانى النشطة المتوثبة للهجـوم البرى والبحرى. وقـبيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رذاً خفيفًا كأنما كانت ترش الأرض رشـًا، فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصـره إلى السمـاء وقال: (لقد أولانا الله رحـمتـه وعنايته فـأنزل هذا المطر المبارك فى أوانه، فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة)[3].

الحادى عشر: «فتح من الله ونصر قريب»:

عند الساعـة الواحدة صبـاحًا من يوم الثلاثاء ٢٠ جـمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مـايو ١٤٥٣م بدأ الهجـوم العام على المدينة بـعد أن أصـدرت الأوامر للمـجـاهدين الذين علت أصـواتهم بالتكبـيـر وانطلقـوا نحـو الأسوار، وخـاف البيزنطيون خوفًا عظيمًا، وشرعـوا فى دق نواقيس الكنائس، والتجأ إليها كثير من

(١)، (٢) محمد الفاتح، ص (١٢٩).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٣٠).

النصارى وكـان الهجوم الـنهائى متـزامنًا بريًا وبحريًا فى وقت واحـد حسب خطة دقيقة أعـدت بإحكام، وكان المجاهدون يرغبون فى الشهـادة، ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضـحية وإقدام نحو الأعداء، ونال الكثير من المجـاهدين الشهادة، وكان الهجوم موزعًا على كثير من المناطق، ولكنه مركز بالدرجة الأولىٰ فى منطقة وادى ليكوس، بقـيـادة السلطان مـحمـد الفـاتح نفـسه، وكـانت الكتـائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القـذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين، ومع استبســال البيزنطيين وشجاعة العثمانيـين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة[١]، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى، فسحب الأولى ووجه الفرقـة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الـفرقة الجديدة من الوصول إلى الأسـوار، وأقاموا عليهـا مئات السـلالم فى محـاولة جادة للاقـتحـام، ولكن النصارى اسـتطاعوا قلب السـلالم واستمرت تلـك المحاولات المستميتة من المهـاجمين، والبيزنطيون يـبذلون قصارى جهـودهم للتصدى لمحـاولات التسلق، وبعد سـاعتين من تلك المحـاولات أصدر الفاتح أوامـره للجنود لأخذ قسط من الراحـة، بعد أن أرهقوا المدافـعين فى تلك المنطقة، وفى الوقت نفسه أصدر أمرًا إلى قـسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة، وفوجىء المدافعـون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا، فى الوقت الذى كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفى رغبة شـديدة لأخذ نصيبهم من القتال[٢]، كما كان القتال يجرى على قدم وساق فى المنطقة البحرية مما شـتت قوات المدافعين وأشغلهم فى أكثر من جبـهة فى وقت واحد، ومع بزوغ نور الصـباح أصبح المهاجـموم، يستطيـعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكـثر، وشرعوا فى مضاعفة جـهودهم فى الهجوم وكان المسلمون فى حـماسة شـديدة وحريصيـن على إنجاح الهجـوم، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكى يتـيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعمـلها مرة أخـرى حيث أمطرت الأسـوار والمدافعـين عنها بوابل من الـقذائف، وأتعبتـهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعـد أن هدأت المدفعية جـاء قسم جديد من

(١) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٨٠).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٣٨١).

شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التى لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها.

وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة فى الهجوم، واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابى ورفعوا الأعلام العثمانية[1]. مما زاد فى حماس بقية الجيش للاقتحام، كما فتّوا فى عضد الأعداء، وفى نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جوستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة[2]، مما أثر فى بقية المدافعين، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جوستنيان الذى ركب إحدى السفن فارًا من أرض المعركة، وقد بذل الإمبراطور جهودًا كبيرة فى تثبيت المدافعين الذين دب اليأس فى قلوبهم من جدوى المقاومة، فى الوقت الذى كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصيًا على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون هجومهم فى ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج، والقضاء على المدافعين فى باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يُعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قُتل فى ساحة المعركة[3].

وكان لانتشار خبر موته دور كبير فى زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين، وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة، وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة. وكان الفاتح رحمة الله مع جنده فى تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده، وكان قواده يهنئونه

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٨٢).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (١٣٧).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٣٩).

وهو يقول: (الحمد الله، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبى الفخر والشكر)[1].

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التى تسببت فى استشهاد عدد من المجاهدين، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس، ولم تأت ظهيرة ذلك اليوم- الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧ هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م- إلا والسلطان الفاتح فى وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون: ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال: لقد أصبحتم فاتحى القسطنطينية الذى أخبر عنهم رسول الله ﷺ، وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكرًا وحمدًا وتواضعًا لله تعالى[2].

الثانى عشر: معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين:

توجه محمد الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كثير من الناس، ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفًا عظيمًا، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين فى سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبرًا للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلى المسجد، لأن البلد فتحت عنوة، والعنوة لها حكمها فى الشريعة الإسلامية.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم فى القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة فى الأقاليم الأخرى، ولكنه فى الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع[3].

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (١٣١).

(٢) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٨٣).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٨٤).

ولقد حاول المؤرخ الإنجليزى إدوارد شيبردكريسى فى كتابه «تاريخ العثمانيين الأتراك» أن يشوه صورة الفتح العثمانى للقسطنطينية، ووصف السلطان محمداً الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامى المجيد[(١)]. وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة فى عام ١٩٨٠م فى حمأة الحقد الصليبى ضد الإسلام، فزعمت أن السلطان محمداً قام باسترقاق غالب نصارى القسطنطينية، وساقهم إلى أسواق الرقيق فى مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك[(٢)].

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول: إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجاديوس بطريركاً، وتوجه هذا بعد انتخابه فى موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه فى موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية، وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً عن السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لابد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية فى اطمئنان وسلام[(٣)].

كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التى حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أى شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم[(٤)].

---

(١) انظر: جوانب مضيئة، ص (٢٦٥).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٦٧).

(٣) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٣٤، ١٣٥).

(٤) انظر: جوانب مضيئة، ص (٢٧٤).

إن مِلل النصارى تحت الحكم العثمانى تحصلت على كل حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس دينى لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد فى ماليتها، وكانت تطلق لهم الحرية فى تكلم اللغة التى يريدونها[١].

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسيًا بالنبى الكريم ﷺ ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم[٢].

---

(١) انظر: جوانب مضيئة، ص (٢٨٣).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٨٧).

المبحث الثانى

الفاتح المعنوى للقسطنطينية

الشيخ آق شمس الدين

هو محمد بن حمـزة الدمشقى الرومى، ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها، وأصبح علمًا من أعلام الحضارة الإسلامية فى عهدها العثمانى.

وهو معلم الفاتح ومربيه، يتصل بنسـبه بالخليفة الراشد أبى بكر الصديق رضى الله عنه، كان مولده فى دمشق عـام (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعـة من عمـره، ودرس فى أماسيـا ثم فى حلب ثم فى أنقـرة وتوفى عام ١٤٥٩هـ.

درّس الشيخُ آق شـمس الدين للأمير محـمد الفاتح العلوم الأساسـية فى ذلك الزمن؛ وهى القـرآن الكريم والسنة النبـوية والفـقه والعلوم الإسـلامـية واللغـات (العربية، والفـارسية، والتركيـة) وكذلك فى مجال العلوم العلميـة من الرياضيات والفلك والتـاريخ والحرب. وكـان الشيخ آق ضـمن العلمـاء الذين أشرفـوا على السلطان محـمد عندما تولى إمـارة مغنيسـيا ليتـدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شـمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقـصود بالحديث النبوى: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[١].

وعندما أصبح الأمـير محمد سلطانًا على الدولة العـثمانية، وكان شاباً صـغير السن وجّهـه شيخه فـوراً إلى التحرك بجيـوشه لتحقـيق الحديث النبوى فحـاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يومًا.

وعندما حقق البـيزنطيون انتصاراً مـؤقتًا وابتهج الشعب البـيزنطى بدخول أربع سـفن أرسلهـا البـابا إليهـم وارتفعت روحـهم المعنـوية اجتـمع الأمـراء والوزراء

---

(١) سبق تخريج الحديث.

العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له: (إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جريًا وراء كلام أحد المشايخ - يقصدون آق شمس الدين-؛ فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد، ثم زاد الأمر على هذا بأن جاء عون من بلاد الإفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل فى هذا الفتح. . .)[1]. فأرسل السلطان محمد وزيره ولى الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين فى خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: (لابد من أن يمنّ الله بالفتح)[2].

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: (هو المعزّ الناصر. . . . إن حادث تلك السفن قد أحدث فى القلوب التكسير والملامة وأحدث فى الكفار الفرح والشماتة. إن القضية الثابتة هى: إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله. . ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم وما هى إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل)[3].

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة فى الأمراء والجنود. وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثمانى الاستمرار فى الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال: علمنى يا سيدى دعاءً أدعو الله به ليوفقنى، فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام[4].

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم، فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة، ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول، وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ

(١) انظر: البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، ص (١٤٦).

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٣٧٣).

(٣)، (٤) المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٣).

ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة فى جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل، فإذا شيخه ساجداً لله فى سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجى ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب[1].

وعاد السلطان محمد (الفاتح) عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة، فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية[2]. ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحى لفتح المدينة إنما فرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمنى[3].

وقد ذكر الشوكانى فى البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله، وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذى تفتح فيه القسطنطينية على يديه[4].

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ إلى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله فى الحرب، وبحقوق الأمم المفتوحة كما هى فى الشريعة الإسلامية[5].

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد، (سيد القوم خادمهم). ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: يا جنود الإسلام اعلموا واذكروا أن النبى ﷺ قال فى شأنكم: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[6]، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر

---

(١)، (٢) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٣٧٤) .

(٣) انظر: البدر الطالع (٢/ ١٦٧).

(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٦٦).

(٥) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٣٧٤).

(٦) سبق تخريج الحديث.

لنا. ألا لا تسرفوا فيـما أصبتم من أموال الغنيمة، ولا تبـذروا، وأنفقوها فى البر والخيـر لأهل هذه المدينة، واسمـعوا لسلطانكم وأطيعـوه وأحبـوه. ثم التفت إلى الفاتح وقـال له: يا سلطانى، لقد أصبـحت قرة عين آل عثـمان فكن على الدوام مجاهدًا فى سبيل الله. ثم صاح مكبرًا بالله فى صوت جهورى جليد(١).

وقد اهتـدى الشيخ آق شمس الدين بعـد فتح القسطنطينيـة إلى قبر الصـحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى بموضع قريب من سور القسطنطينية(٢).

وكـان الشيخ آق شـمس الدين أول من ألقى خطبـة الجـمعـة فى مـسجـد آيا صوفيا(٣).

الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمـد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حبّـاً عظيمًا، وكانت له مكانة كبيرة فى نفسه، وقـد بين السلطان لمن حوله - بعد الفتح -: (إنكم تروننى فرحًا. فرحى ليس فـقط لفتح هذه القلعة، إن فرحى يتمثـل فى وجود شيخ عزيز الجانب، فى عهدى، هو مؤدبى الشيخ آق شمس الدين).

وعبر السلطان محـمد الفاتح عن تهيبه لشيخه فى حـديث له مع وزيره محمود باشا، قـال السلطان الفاتح: (إن احتـرامى للشيخ آق شـمس الدين، احترام غـير اختيارى.. إننى أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة)(٤).

ذكر صاحب البدر الطالع: (... ثم بعد يوم جـاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمـة -أى آق شمس الدين- وهو مضطجع، فلم يقم له، فـقبل السلطان يده وقال له: جـئتك لحاجة، قـال: وما هى؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك فـأبى فألح عليه السلطان مـرارًا وهو يقول: لا، فغضب السلطان وقـال: إنه يأتى إليك واحد من الأتراك فتـدخله الخلوة بكلمة واحـدة، وأنا تأبى علىّ، فقـال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتـختل أمورها فيمقت الله

---

(١)، (٢) انظر: محمد الفاتح، ص (١٤٩).

(٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٣٧٤).

(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٥).

علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر له شيئًا من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لى. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذى لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو...)[١].

هكذا كان هذا العالم الجليل الذى حرص على تربية محمد الفاتح على معانى الإيمان والإسلام والإحسان، ولم يكن هذا الشيخ متبحرًا فى علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالمًا فى النبات والطب والصيدلة، وكان مشهورًا فى عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه فى علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض. وبلغت شهرته فى ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول: (إن النبات ليحدث آق شمس الدين)[٢].

وقال الشوكانى عنه: (... وصار مع كونه طبيبًا للقلوب طبيبًا للأبدان، فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلانى ثم اشتهرت بركته وظهر فضله...)[٣].

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتمامًا خاصًا بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض فى عصره تتسبب فى موت الآلاف، وألف فى ذلك كتابًا بالتركية بعنوان «مادة الحياة» قال فيه: (من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيًا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى. هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة. لكن هذا يحدث بواسطة بذور حيّة)[٤].

---

(١) البدر الطالع (٢/ ١٦٧).

(٢) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٣٧٥).

(٣) البدر الطالع (٢/ ١٦٦).

(٤) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٣٧٦).

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب فى القرن الخامس عشر الميلادى، وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد. وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائى والبيولوچى الفرنسى لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضًا بالسرطان وكتب عنه، وفى الطب ألف الشيخ كتابين هما: (مادة الحياة)، و(كتاب الطب)، وهما باللغة التركية والعثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبعة كتب، هى: حل المشكلات، الرسالة النورية، مقالات الأولياء، رسالة فى ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة فى شرح حاجى بايرام ولى[1].

وفاته:

عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحس بالحاجة إلى ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه فى إستنبول، ومات عام ٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م، فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان[2].

وهكذا سنة الله فى خلقه لا يخرج قائد ربانى، وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون فى تعليمه وتربيته وترشيده.. والأمثلة فى ذلك كثيرة، وقد ذكرنا دور عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم فى دولة المرابطين، والقاضى الفاضل مع صلاح الدين فى الدولة الأيوبية، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح فى الدولة العثمانية، فرحمة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم فى المصلحين.

***

(١)، (٢) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٣٧٦).

المبحث الثالث

أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبى والإسلامى

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة فى وجه انتشار الإسلام فى أوروبا، ولذلك فإن سقوطها يعنى فتح الإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذى قبل، ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمى، وخصوصًا تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام، حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة(١).

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور فى المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية، وأطلق عليها لقب إسلام بول أى مدينة الإسلام(٢).

لقد تأثر الغرب النصرانى بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والألم والخزى، وتجسم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من إستنبول، وبذل الشعراء والأدباء ما فى وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب فى نفوس النصارى ضد المسلمين، وعقد الأمراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة، وتنادى النصارى إلى نبذ الخلافات والحزازات، وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثرًا بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته فى توحيد الدول الإيطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمرًا عقد فى روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين والتى تسببت فى همه وحزنه، فمات كمدًا فى ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م(٣).

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزيونا، ص (٣٨٤).

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٦٤).

(٣) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٣٦، ١٣٧).

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماسًا وحمية واستنفر ملوك النصارى إلى قتال المسلمين، وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم، وتزعمت البابوية فى روما حروب النصارى ضد المسلمين،وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ ما رآه مناسبًا لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمدًا أو يتاخمون حدوده فى آماسيا، وبلاد المورة، وطرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقى، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان فى أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم(١).

وحاول البابا بيوس الثانى بكل ما أوتى من مقدرة خطابية، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبى فى نفوس النصارى شعوبًا وملوكًا، قادة وجنودًا، واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين، ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية، فلقد أنهكت حرب المائة عام إنجلترا وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة فى مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما إسبانيا فهى مشغولة بالقضاء على مسلمى الأندلس، وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحبّاً فى المال.

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا وأصبحت المجر والبندقية تواجهان الدولة العثمانية وحدهما؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها، وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية، واستطاع العثمانيون أن يضموا إلى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والأفلاق والقرم والجزر الرئيسية فى الأرخبيل، وقد تم ذلك فى فترة قصيرة، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم، وأخذهم أخذًا عظيمًا(٢).

---

(١) (٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٤٠).

وحاول البابا (بيوس الثانى) بكل ما أوتى من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده فى ناحيتين اثنتيـن: حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين النصرانى، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض، وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عن خطاياه إن هو اعتنق النصرانية مخلصًا، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخـول الجنة، ولما فشل البابا فى خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدا فشلهـا مسبقًـا بهزيمة الجيـوش الصليبية والـقضاء على الحملة التى قـادها هونياد المجرى[1].

وأمـا عن آثار هذا الفتح المبـين فى المشـرق الإسلامى فنقـول: لقد عم الفـرح والابتهاج المسلمين فى ربوع آسيا وأفريقيا، فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الأجيـال، ولقد تـطلعت له طويلاً وها قد تحـقق وأرسل السلطان مـحمد الـفاتح رسائل إلى حكام الديار الإسلامية فى مصـر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها؛ يخبـرهم بهذا النصـر الإسلامى العظيم، وأذيعت أنبـاء الانتصار مـن فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحـوانيت وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة[2].

يقـول ابن إياس صاحب كـتـاب (بدائع الزهور) فى هذه الواقـعة: (فلمـا بلغ ذلك، ووصل وفد الفـاتح، دقت البشائر بالقلعـة، ونودى فى القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عـين برسبـاى أميـر آخور ثانـى رسولاً إلى ابن عـثمـان يهنئه بهـذا الفتح)[3].

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغرى بردى يصف شعور الناس وحالهم فى القاهرة عندما وصل إليـها وفد الفـاتح ومعهم الهـدايا وأسيران من عظمـاء الروم، قال: (قلت: ولله الحـمد والمنة على هذا الفـتح العظيم، وجـاء القاصـد المذكور ومـعه

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٤١).

(٢)، (٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٤٢).

أسيران من عظماء إسطنبول، وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال)، وهما من أهل القسطنطينية وهى الكنيسة العظيمة بإسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أيامًا، ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة فى يوم الإثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة. وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا فى ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل...)[1].

وهذا الذى ذكره ابن تغرى بردى من وصف احتفال الناس وأفراحهم فى القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت فى البلاد الإسلامية الأخرى، وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له فى المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته[2].

من رسالة الفاتح إلى سلطان مصر:

وإليك مقتطفات من رسالة الفاتح إلى أخيه سلطان مصر الأشرف إينال وهى من إنشاء الشيخ أحمد الكورانى: (.. إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٩]، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار» فهممنا فى هذا العام - عمه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذى الجلال والإكرام، ومتمسكين بفضل الملك العلام - بأداء فرض الغُزَّاء فى الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ...﴾ [التوبة: ١٢٣]، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة مُلئت فجورًا وكفرًا التى بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهى بكفرها فخرًا.

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١٦/ ٧١).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (١٤٢).

فكأنها حصف على الخد الأغر وكأنها كلف على وجه القمر

. . . هذه المدينة الواقع جانب منها فى البحر وجانب منها فى البر، فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ...﴾ [الأنفال: ٦٠]، كل أهبة يعتد بها وجميع أسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والحجور وغيرها من جانب البر، والفلك المشحون والجوار المنشآت فى البحر كالأعلام من جانب البحر، ونزلنا عليها فى السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

فقلت للنفس جدى الآن فاجتهدى وساعدينى فهذا ما تمنيت

فكلما دُعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا، وقاتلناهم وقاتلونا، وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يومًا وليلة.

إذا جاء نصر الله والفتح هين على المرء معسور الأمور وصعبها

فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجومًا لجنود الشياطين، سخرها الحكم الصديقى ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان، وقد من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦]، وأول من قتل وقطع رأسه نكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فأخذتهم ملائكة العذاب فأوردهم النار وبئس المآب، فقُتل من قُتل وأسر من به بقى، وأغاروا على خزاينهم وأخرجوا كنوزهم ودفافينهم، موفورًا فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، فلما ظهرنا على هؤلاء الأجارس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام، وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة فوقع أمر الله وبطل ما كانوا يعملون. . »[1].

(١) محمد الفاتح، ص (١٦٣ - ١٦٧).

وأرسل السلطان الفاتح رسالة إلى شريف مكة عن طريق سلطان مصر، وقد رد سلطان مصر على خطاب السلطان محمد وهداياه بمقطوعة من النثر الأدبى الرفيع وجاءت فيها بعض الأبيات الشعرية المعبرة مثل قول الشاعر:

خطبتها بكراً وما أمهرتها إلا قنا وقواضباً وفوارسا

من كانت السمر العوالى مهره جلبت له بيض الحصون عرايسا

الله أكبر ما جنيت ثمارها إلا وكان أبوك قبلك غارساً[1]

وقد جاء فى رسالة سلطان مصر أيضًا هذا البيت، قال الشاعر:

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر[2]

وقال شاعر سلطان مصر بمناسبة فتح القسطنطينية:

كذا فليكن فى الله جل العزايم وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها إذا ما تهدت موجه المتلاطم

تحيط بمنصور اللواء مظفر له النصر والتأييد عبد وخادم

فيا ناصر الإسلام يا من بغزوه على الكفر أيام الزمان مواسم

تهنَّ بفتح سار فى الأرض ذكره سرى الغيث يحدوه الصبا والنعايم[3]

رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة:

وجه السلطان محمد الفاتح رسالة إلى شريف مكة المكرمة بمناسبة فتح القسطنطينية بشره فيها بالفتح، وطلب الدعاء، وأرسل له الهدايا من الغنائم، وهذه بعض فقراتها:

بعد مقدمة فى المدح والثناء على شريف «مكة المكرمة» يقول: «فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشرًا بما رزق الله لنا فى هذه السنة من الفتوح التى لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهى تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية، فالمأمول من مقر عزكم

(١) محمد الفاتح، ص (١٧٥).

(٢) المصدر السابق، ص (١٧٦).

(٣) المصدر السابق، ص (١٧٧).

الشريفة أن يبشر بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى، مع سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين، والمشايخ، والأمجاد الواصلين، والأئمة الخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين، والمتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، التى كالعروة الوثقى لا انفصام لها، والمشرفين بزمزم والمقام، والمعتكفين فى قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام، داعين لدوام دولتنا فى العرفات، متضرعين من الله نصرتنا، أفاض علينا بركاتهم ورفع درجاتهم، وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم خاصة ألفى فلورى من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة، وسبعة آلاف فلورى أخرى للفقراء، منها ألفان للسادات والنقباء، وألف للخدام المخصوصين للحرمين، والباقى للمساكين المحتاجين فى مكة والمدينة المنورة، زادهما الله شرفًا، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم، وإشعار كيفية السير إلينا، وتحصيل الدعاء منهم لنا، دائمًا باللطف والإحسان إن شاء الله تعالى، والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين[١].

وقد رد شريف مكة على رسالة السلطان محمد الفاتح: (وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب، فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين، وما هى إلا فتح «القسطنطينية» العظمى وتوابعها التى متانة حصنها مشهورة بين الأنام، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام، وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير، وبششنا ذلك غاية البشاشة، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك مسالك أجدادكم الكرام، روّح الله أرواحهم، وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم. . .[٢]

***

(١) الدولة العثمانية، الدكتور جمال عبد الهادى، ص (٤٧).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٤٨).

المبحث الرابع

أسباب فتح القسطنطينية

إن فتح المسلمين للقسطنطينية لم يأت من فراغ، وإنما هو نتيجة لجهود تراكمية قام بها المسلمون منذ العصور الأولى للإسلام، رغبة من تلك الأجيال فى تحقيق بشارة رسول الله ﷺ، وزاد الاهتمام بفتح القسطنطينية مع ظهور دولة بنى عثمان، ونلاحظ أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا أصحاب فقه عميق لسنة الأخذ بالأسباب، ومارس محمد الفاتح ذلك الفقه ويظهر ذلك من خلال سيرته الجهادية وحرصه على العمل بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

لقد فهم محمد الفاتح من هذه الآية أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها وتنوعها، ولقد قام بشرح هذه الآية شرحًا عملياً فى جهاده الميمون؛ فقام بحشد عظيم لحصار القسطنطينية ولم يتوان فى جلب كل سلاح معروف فى زمانه من مدافع، وفرسان، ورماة.. إلى آخره.

ولقد كان الجيش الذى حاصر القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح قد أعد إعدادًا ربانياً فتربى على معانى الإيمان والتقوى، وتحمل الأمانة وأداء الرسالة المنوطة به، ولقد تربى على معانى العقيدة الصحيحة، وأشرف العلماء الربانيون على تلك التربية، ولقد جعلوا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه منهجًا لهم فى تربية الأفراد، فكانوا يربونهم على:

١- أن الله تعالى واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه منزه عن النقائص، وموصوف بالكمالات التى لا تتناهى.

٢- وأنه سبحانه خالق كل شيء، ومالكه، ومدبر أمره: قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٣- وأنه سبحانه وتعالى مصدر كل نعمة فى هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٤- وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

٥- وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، فى كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك فى اللحظة المناسبة والوقت المناسب ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

٦- وأنه سبحانه يبتلى عباده بأمور تخالف ما يحبون، وما يهوون، ليعرف الناس معادنهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهرًا وباطنًا، فيكون جديرًا بالخلافة والإمامة والسيادة، ومن منهم يغضب ويسخط فلا يقيم لهم وزنًا ولا يرفع لهم قدرًا: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

٧- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه ونزل على حكمه فى كل ما يأتى وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

٨- وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه، ويوحدوه، فلا يشركوا به شيئًا: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

٩- وأنه -سبحانه -حدد مضمون هذه العبودية وهذا التوحيد فى القرآن العظيم.

ولقد نهج علماء الدولة العثمانية منهج الرسول ﷺ فى تربية الأفراد والجنود على حقيقة المصير وسبيل النجاة وركزوا فى البيان على الجوانب التالية:

١- إن هذه الحياة مهما طالت فهى إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

٢- وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون، وفى الجنة أو فى النار مستقرون: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

٣- وأن نعيم الجنة ينسى كل تعب ومرارة فى الدنيا، وكذلك عذاب النار ينسى كل راحة وحلاوة فى هذه الدنيا: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

٤- وأن الناس مع زوال الدنيا، واستقرارهم فى الجنة، أو فى النار، سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

٥- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال، ومن تلك الشدائد، والظفر بالجنة والبعد عن النار[1]، بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

ومضى العلماء الربانيون فى الدولة العثمانية على منهج الرسول ﷺ فى تبصير الأفراد والجنود والقادة والشعب بدورهم ورسالتهم فى الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظلوا على هذا الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح فى ذهنهم، ما لهم عند الله، وما دورهم ورسالتهم فى الأرض، وتأثرًا بهذه التربية الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة فى نفوس الأفراد والجنود والقادة، فهذا محمد الفاتح نفسه الذى تربى على هذا المنهج يفتخر بهذه المعانى والقيم فى أشعاره فنجده يقول:

نيتى: امتثالى لأمر الله ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ [المائدة: ٣٥].

وحماسى: بذل الجهد لخدمة دينى، دين الله.

---

(١) انظر: منهج الرسول فى غرس الروح الجهادية، ص (١٩- ٣٤).

عزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعًا بجنودي: جند الله.

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر، على الفوز، بلطف الله.

جهادي: بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله.

وأشواقي: الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله.

ورجائي: في نصر الله، وسمو الدولة على أعداء الله[1].

وعندما أراد السلطان محمد فتح مدينة طرابزون وكان حاكمها نصرانياً وكان يريد أن يباغتها على غرة، فأعد العدة، واستصحب معه عددًا كبيرًا من العمال المتخصصين في قطع الأشجار وتعبيد الطرق، وقد صادف الفاتح في طريقه بعض الجبال العالية الوعرة فترجل عن فرسه وتسلقها على يديه ورجليه كسائر الجند (وكانت معه والدة حسن أوزون زعيم التركمان جاءت للإصلاح بين السلطان محمد وابنها) فقالت له: (فيم تشقى هذا الشقاء يا بني، وتتكبد كل هذا العناء، هل تستحق طرابزون كل هذا؟).. فأجاب الفاتح: يا أماه، إن الله قد وضع هذا السيف في يدي لأجاهد به في سبيله، فإذا أنا لم أتحمل هذه المتاعب وأؤد بهذا السيف حقه فلن أكون جديرًا بلقب الغازي الذي أحمله. وكيف ألقى الله بعد ذلك يوم القيامة؟[2]. وهكذا كان معظم الجنود والقادة بسبب تربيتهم الإيمانية العميقة.

لقد كان جيش محمد الفاتح في حصار القسطنطينية على جانب عظيم من التمسك بالعقيدة الصحيحة، والعبادات وإقامة شعائر الدين والخضوع لله رب العالمين[3].

لقد ذكر المؤرخون أسبابًا كثيرة في فتح القسطنطينية، كضعف الدولة البيزنطية، والصراعات العقدية بداخلها، والتآكل الداخلي للدول الأوروبية بسبب القتال الذي نشأ بين الدول الأوروبية لعقود طويلة وغير ذلك من الأسباب.

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (٢٥٨).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (٢٦٣).

(٣) انظر: الحسبة في العصر المملوكي، د. حيدر الصافح، ص (٢٠٦).

أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية فى زمن السلطان محمد الفاتح:

إن التأمل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وفى حياة الأمم والشعوب تكسب العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله فى الأنفس والكون والآفاق، وكتاب الله تعالى ملىء بسننه وقوانينه المبثوثة فى المجتمعات والدول والشعوب، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وسنن الله تتضح بالتدبر فى كتاب الله وفيما صح عن رسول الله ﷺ ، فقد كان ﷺ يقتنص الفرص ويستفيد من الأحداث ليرشد أصحابه إلى شىء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ «العضباء» كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابى على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبى ﷺ ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام كاشفًا عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يُرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه» [1].

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن فى الأمكنة بالسعى والسَّيْر، وفى الأزمنة من التاريخ والسِّير، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكير، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠١، ١٠٢].

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: إنها قدر سابق:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

---

(١) أخرجه البخارى، كتاب الجهاد والسير، باب ناقة رسول الله (٦/ ٨٦).

أى أن حكم الله تعالى وأمره الذى يقدره كـائن لا محالة، وواقع لا حياد عنه، ولا معدل فيما شاء وكان وما لم يشأ لم يكن.

ثانيًا: **إنها لا تتحول ولا تتبدل:**

قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

ثالثًا: **إنها ماضية لا تتوقف:**

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

رابعًا: **إنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها:**

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢- ٨٥].

خامسًا: **لا ينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون:**

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

سادسًا: **إنها تسرى على البر والفاجر:**

فالمؤمنون -والأنبياء أعلاهم قدرًا- تسرى عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل أمر الله أو أعرض عنه، وبما أن العثمانيين

التزموا بشرع الله فى كل شئونهم ومروا بمراحل طبيعية فى حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى آخروية، أما الآثار الدنيوية التى ظهرت لى من خلال دراستى للدولة العثمانية فإنها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد العثمانيين منذ زعيمهم الأول عثمان حتى محمد الفاتح ومن بعده حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله فى تحاكمهم إلى شرعه، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم واستخلفهم فى الأرض، وأقام العثمانيون شريعة الله فى الأرض التى حكموها، فمكَّن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان.

وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل فى الشعوب والأمم التى تسعى جاهدة لإقامة شرع الله.

وقد خاطب تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعدًا إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه فى سورة النور: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [النور: ٥٥] من بنى إسرائيل.

ولقد حقق العثمانيون الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فأتتهم ثمرة ذلك وأثره الباقى ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ** ﴾ [النور: ٥٥] فحققوا التحاكم إلى الدين، فتحقق لهم التمكين.

ثانيًا: الأمن والاستقرار:

كانت بلاد آسيا الصغرى مضطربة وكثرت فيها الإمارات المتنازعة، وبعد أن أكرم الله تعالى العثمانيين بتوحيد تلك الإمارات وتوجيهها نحو الجهاد فى سبيل الله تعالى يسر الله للدولة العثمانية الأمن والاستقرار فى تلك الربوع التى حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن الدولة العثمانيــة بعد أن استخلفت مكَّن الله لها، وأعطاها دواعى الأمن وأسباب الاستقرار حتى تحافظ على مكانتها، وهذه سنة جارية ماضية ضمن الله لأهل الإيمان والعـمل بشرعـه وحكمه أن ييـسر لهم الأمن الذى ينشـدون فى أنفسهم وواقـعهم، فبيده سبـحانه مقاليد الأمور، وتصـريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمـن استـقام على التـوحيـد وتطهر من الشـرك بأنواعــه، قال تعـالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فنفوسهم فى أمن من المخـاوف ومن العذاب والشقاء، إذا خلصت لله من الشرك، صغـيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيـه راحة للنفوس لكونها تلمس عدل الله ورحمته وحكمته.

إن الله تعالى بعــد أن وعد المؤمنين بالاستخـلاف ثم التمكين لم يحرمـهم بعد ذلك من التأمين، والتطمين والبعد عن الخوف والفزع.

إن العثـمانيين عندما حـققوا العبـودية لله ونبذوا الشرك بأنواعــه حقق الله لهم الأمن فى النفوس على مستوى الشعب والدولة.

ثالثًا: النصر والفتح:

إن العثمانــيين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحقـقت فيهم سنة الله فى نصرته لمن ينصــره، لأن الله ضمن لمن استـقام على شرعــه أن ينصره على أعدائه بعزته وقـوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ⁽٤٠⁾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

(وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيــادة فى نهاية المطاف. . . إن الكثيرين ليشفقـون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإن هى إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ

أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها فى ربع قرن أو أقل من الزمان)[١].

إن الله تعالى أيد العثمانيين على الأعداء ومنّ عليهم بالفتح، فتح الأراضى وإخضاعها لحكم الله تعالى، وفتح القلوب بهدايتها لدين الإسلام.

إن العثمانيين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح، واستنزلت عليهم نصر الله.

إن الشعوب الإسلامية التى تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها فى الدنيا والآخرة.

إن مسئولية الحكام والقضاة والعلماء والدعاة فى الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسئولية عظيمة يسألون عنها يوم القيامة أمام الله: (إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله، وقع بأسهم بينهم.. وهذا أعظم أسباب تغير الدول، كما جرى هذا مرة بعد مرة فى زماننا وغير زماننا، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره)، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه؛ فإن الله يقول فى كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١] فقد وعد الله بنصر من ينصره، ونصره، هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم)[٢].

رابعًا: العز والشرف:

إن عز العثمانيين وشرفهم العظيم الذى سطر فى كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ الذى به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها، وضع رجله على الطريق الصحيح، وأصاب سنة الله الجارية فى إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٧٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٥/ ٣٨٨).

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية: (فيه شرفكم)[1]. إن العثمانيين استمدوا شرفهم وعزهم من استمساكهم بأحكام الإسلام، كما قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه: (إنا كنّا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله)[2]، فعمر رضى الله عنه كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزاً وذلاً، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت فى يوم بغير دين الله، ولا ذلت فى يوم إلا بالانحراف عنه، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر: ١٠] يعنى من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل[3].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

إن سيرة سلاطين العثمانيين من أمثال عثمان الأول، ومراد، ومحمد الفاتح تبين لنا اعتزازهم بالإسلام وحبهم للقرآن واستعدادهم للموت فى سبيل الله، ولقد عاشوا فى بركة من العيش ورغد من الحياة الطيبة، وما نالوا ذلك إلا بإقامة دين الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

خامسًا: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل فى زمن محمد الفاتح وانحسرت الرذائل؛ فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة؛ متطلعًا إلى ما عند الله من الثواب، ويخشى من عقاب الله. لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحبه الرحمن وإلى تعاليم الإسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله فى تلك الشعوب والدول التى نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التى أصابت الدولة العثمانية

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك، كتاب الإيمان (١/ ٦٢).

(٣) ابن كثير (٢/ ٥٢٦).

لهى من سنن الله الجارية والتى لا تتبدل ولا تتغـير، فأى شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعـمل العظيم يصل إليـه ولو بعـد حين، ويرى آثار ذلك التـحكيم على أفراده وحكامه ودولته.

إن الغرض من الأبحاث التـاريخية الإسلامية الاسـتفادة الجادة من أولئك الذين سبقـونا بالإيمان فى جهادهم وعلمهم وتربيـتهم، وسعيهم الـدءوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن التمكين، وفقه ومراعـاة التدرج، والمرحلية والانتقاء من أفراد الشعب، والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلامية المنشودة.

إن الانتصارات العظيمة فى تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على أيدى من أخلص لربه ودينه وأقام شرعـه وزكى نفسه، ولهذا لا يأتى فتـح عظيم ونصر مبين إلا لمن توافرت فيهم صفات جيل التمكين التى ذكرت فى القرآن الكريم.

***

المبحث الخامس

أهم صفات محمد الفاتح

لقد ظهرت بعض الصفات القيادية فى شخصية محمد الفاتح عند البحث والدراسة ومن أهم هذه الصفات:

١ - الحزم:

وظهر ذلك عندما غلب ظنه أن هناك تقصيرًا أو تكاسلاً من جانب قائد الأسطول العثمانى بالطه أوغلى عند حصاره للقسطنطينية، فأرسل إليه وقال: (إما أن تستولى على هذه السفن، وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق فى ذلك فلا ترجع إلينا حيًا)[١].

ولما لم يحقق بالطه أوغلى مهمته عزله، وجعل مكانه حمزة باشا.

٢ - الشجاعة:

وكان رحمه الله يخوض المعارك بنفسه ويقاتل الأعداء بسيفه. وفى إحدى المعارك فى بلاد البلقان تعرض الجيش العثمانى لكمين من قبل زعيم البوغدان استفان حيث تخفى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة، وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح الجنود على وجوههم، وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان الفاتح وتباعد عن مرمى المدافع وعنّف رئيس الإنكشارية محمد الطرابزونى على تخاذل جنده، ثم صاح فيهم: (أيها الغزاة المجاهدون كونوا جند الله، ولتكن فيكم الحمية الإسلامية)[٢]، وأمسك بالترس واستل سيفه وركض بحصانه، واندفع به إلى الأمام لا يلوى على شىء، وألهب بذلك نار الحماس فى جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة على من فيها ونشب بين الأشجار قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل.

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (١٠١).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٦).

ومزق العثمانيون الجنود البوغدانية شر ممزق، ووقع استفان من فوق ظهر جواده ولم ينج إلا بصعوبة وولى هاربًا، وانتصر العثمانيون وغنموا غنائم وفيرة[1].

٣- الذكاء:

ويظهر ذلك فى فكرته البارعة وهى نقل السفن من مرساها فى بشكطاش إلى القرن الذهبى، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين مبتعدًا عن حى غلطة خوفًا على سفنه من الجنويين، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضًا مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهادًا وتلالاً غير ممهدة، وشرع فى تنفيذ الخطة؛ ومهدت الأرض وسويت فى ساعات قليلة، وأتى بألواح من الخشب دُهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، لقد كان هذا العمل عظيمًا بالنسبة للعصر الذى حدث فيه، بل تجلى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على ذكاء محمد الفاتح الوقّاد[2].

٤- العزيمة والإصرار:

فعندما أرسل السلطان محمد الفاتح إلى الإمبراطور قسطنطين يطلب منه تسليم القسطنطينية حتى يحقن دماء الناس فى المدينة، ولا يتعرضوا لأى أذى، ويكونوا بالخيار فى البقاء فى المدينة أو الرحيل عنها، فعندما رفض قسطنطين تسليم المدينة قال السلطان محمد: (حسنًا عن قريب سيكون لى فى القسطنطينية عرش أو يكون لى فيها قبر)[3].

وعندما استطاع البيزنطيون أن يحرقوا القلعة الخشبية الضخمة المتحركة كان رده (غدًا نصنع أربعًا أخرى)[4].

وهذه المواقف تدل على عزيمته وإصراره فى الوصول إلى هدفه.

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٢٤٧).

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٠٢).

(٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٦).

(٤) السلطان محمد الفاتح، ص (١٢٢).

٥- العدل:

حيث عامل أهل الكتاب وفق الشريعة الإسلامية، وأعطاهم حقوقهم الدينية ولم يتعرض أحد من النصارى للظلم أو التعدى بل أكرم زعماءهم وأحسن إلى رؤسائهم وكان شعاره: العدل أساس الملك[١].

٦- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان:

نجد السلطان محمداً عند دخول القسطنطينية يقول: (حمداً لله، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبى الفخر والشكر)[٢].

فهو أسند الفضل إلى الله ولذلك لهج لسانه بالحمد والثناء والشكر لمولاه الذى نصره وأيده، وهذا يدل على عمق إيمان محمد الفاتح بالله سبحانه وتعالى.

٧- الإخلاص:

إن كثيراً من المواقف التى سجلت فى تاريخ الفاتح تدلنا على عمق إخلاصه لدينه وعقيدته فى أشعاره ومناجاته لربه سبحانه وتعالى حيث يقول:

نيّتى: امتثالى لأمر الله (وجاهدوا فى سبيل الله).

وحماسى: بذل الجهد لخدمة دينى، دين الله.

عزمى: أن أقهر أهل الكفر جميعًا بجنودى: جند الله.

وتفكيرى: منصب على الفتح، على النصر، على الفوز بلطف الله.

جهادى: بالنفس وبالمال، فماذا فى الدنيا بعد الامتثال لأمر الله.

وأشواقى: الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله.

رجائى: فى نصر الله. وسمو الدولة على أعداء الله[٣].

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (١٥٢).

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٣١).

(٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ.

٨- العلم:

اهتم والده به منذ الطفولة ولذلك خضع السلطان محمد الفاتح لنظام تربوى أشرف عليه مجموعة من علماء عصره المعروفين، فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية -آنذاك- من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية، وكان من كرم الله للسلطان محمد الفاتح أن أشرف على تعليمه مجموعة من أساطين العلماء فى عصره، وفى مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكورانى (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل كان موسوعياً فى شتى العلوم المعروفة فى عصره). ولقد تأثر محمد الفاتح بتربية شيوخه وظهرت تلك التربية فى اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية[١].

ولقد تبحر السلطان محمد فى اللغات الإسلامية الثلاث التى لم يكن يستغنى عنها مثقف فى ذلك العصر وهى: العربية والفارسية والتركية، ولقد كان السلطان محمد الفاتح شاعراً وترك ديواناً باللغة التركية[٢].

***

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٣١).

(٢) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٢٥٤ - ٢٥٩).

المبحث السادس

شيء من أعماله الحضارية

اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

كان السلطان محمد الفاتح محبًا للعلم والعلماء، ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد فى جميع أرجاء دولته. وقد كان السلطان أورخان أول من أنشأ مدرسة نموذجية فى الدولة العثمانية وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه، وانتشرت المدارس والمعاهد فى بروسة وأدرنة وغيرهما من المدن.

ولقد فاق محمد الفاتح أجداده فى هذا المضمار وبذل جهودًا كبيرة فى نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات فى التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد فى جميع المدن الكبيرة والصغيرة وكذلك القرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة. ونظم هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التى تدرس فى كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة، ويخضع لامتحان دقيق، وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها، وأحيانًا يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس بين الحين والحين ولا يأنف من استماع الدروس التى يلقيها الأساتذة، وكان يوصى الطلبة بالجد والاجتهاد ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم فى جميع مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التى تدرس فى تلك المدارس: التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، والبلاغة، وعلوم اللغة من المعانى والبيان والبديع، والهندسة... إلى آخره.

وأنشأ بجانب مسجده الذى بناه بالقسطنطنية ثمانى مدارس على كل جانب من جوانب المسجد أربعة مدارس يتوسطها صحن فسيح وفيها يقضى الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة ينامون فيها ويأكلون فيها طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسى على طول السنة

في هذه المدارس، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يشترط في الرجل الذى يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى، متبحرًا في أسماء الكتب والمؤلفين وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة دقيقة، ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص وهذا الأمين مسئول عن الكتب التى في عهدته ومسئول عن سلامة أوراقها[1]، وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل وكانت مناهج هذه المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضًا، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية[2].

اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرب إليه العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج، وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا ليتفرغوا للعلم، والتعليم، وكان يكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل العمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل، ومن بينهم العالم أحمد جلبى بن السلطان أمير على فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه وأعاده إلى وطنه مع رفقائه معززًا مكرمًا.

وبعد أن هزم أوزون حسن زعيم التركمان، وكان هذا الزعيم لا يلتزم بعهد ويناصر أعداء العثمانيين من أى ملة كانت، فبعد أن هزمه محمد الفاتح وقع في يده عدد كبير من الأسرى، فأمر السلطان الفاتح بقتلهم (إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف مثل القاضى محمد الشريحى وكان من فضلاء الزمان، فأكرمه السلطان غاية الإكرام).

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص (٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٣٨٤).

وكان السلطان الفاتح يحترم العلماء وأهل الورع والتقى، وقد تستبد به فى بعض الأحيان نزوة جامحة أو غضبة طارئة ولكنه ما يلبث أن يعود إلى وقاره واحترامه لهم.

وتُحدثنا كتب التاريخ أن السلطان محمدًا بعث مع أحد خدامه بمرسوم إلى الشيخ أحمد الكورانى -وكان حين ذاك يتولى قضاء العسكر- فوجد فيه أمرًا خالف الشرع فمزقه وضرب الخادم. وشق ذلك على السلطان محمد وغضب من فعل الشيخ وعزله من منصبه، ووقع بينهما نفور وجفوة، ورحل الكورانى إلى مصر حيث استقبله سلطانها قيتباى وأكرمه غاية الإكرام وأقام عنده برهة من الزمن، وما لبث الفاتح أن ندم على ما كان منه فكتب إلى السلطان قايتباى يطلب منه أن يرسل إليه الشيخ الكورانى (فحكى السلطان قيتباى كتاب السلطان محمد خان للشيخ الكورانى ثم قال له: لا تذهب إليه فإنى أكرمك فوق ما يكرمك هو. قال: نعم هو كذلك إلا أن بينى وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد. وهذا الذى جرى بيننا شىء آخر وهو يعرف ذلك منى ويعرف أنى أميل إليه بالطبع، فإذا لم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فتقع بينكما عداوة. فاستحسن السلطان قيتباى هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً، وهيأ له ما يحتاج إليه من حوائج السفر وبعث معه هدايا عظيمة إلى السلطان محمد خان، وأسند إليه الفاتح القضاء ثم الإفتاء، وأجزل له من العطاء وأكرمه إكرامًا لا مزيد عليه[1].

قال عنه الشوكانى: (.. وانتقل من قضاء العسكر إلى منصب الفتوى وتردد إليه الأكابر وشرح (جمع الجوامع) وكثر تعقبه للمحلى (جلال الدين المحلى المفسر) وعمل تفسيرًا، وشرحًا للبخارى، وقصيدة فى علم العروض نحو ستمائة بيت، وأنشأ بإسطنبول جامعًا ومدرسة سماها دار الحديث، وانثالت عليه الدنيا وعمر الدور وانتشر علمه، فأخذ عليه الأكابر وحج فى سنة ٧٦١هـ إحدى وستين وسبعمائة، ولم يزل على جلالته حتى (مات) فى أواخر سنة ٧٩٣هـ ثلاث وتسعين وسبعمائة وصلى عليه السلطان فمن دونه، ومن مطالع قصائده فى مدح سلطانه:

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٨٩).

هوالشمس إلا أنه الليث باسلا هو البحر إلا أنه مالك البر

وقد ترجمه صاحب (الشقائق النعمانية) ترجمة حافلة: «... وأنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحنى له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وأنه كان لا يأتى إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه وكان يقول له: مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط. وذكر له مناقب جمة تدل على أنه من العلماء العاملين...»[1].

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم فى مكان أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته، وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح فى شهر رمضان أن يأتى إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين فى تفسير القرآن فيقوم فى كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم ويناقشه فى ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك فى هذه المناقشات ويشجع هؤلاء العلماء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة.

اهتمامه بالشعراء والأدباء:

ذكر مؤرخ الأدب العثمانى أن السطان محمد الفاتح كان (راعيًا لنهضة أدبية، وشاعر مجيدًا حكم ثلاثين عامًا كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء، وعرف بأبى الفتح؛ لأنه غلب على إمبراطوريتين، وفتح سبع ممالك، واستولى على مائتى مدينة، وشاد دور العلم ودور العبادة، فعرف كذلك بأبى الخيرات)[2].

وكان الفاتح مهتمًا بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير منهم مثل أحمد باشا محمود ومحمود باشا وقاسم الجزرى باشا، وهؤلاء شعراء[3]، وكان فى بلاط الفاتح ثلاثون شاعرًا يتناول كل منهم راتبًا شهريًا قدره ألف درهم. وكان طبيعيًا بعد هذا الاهتمام أن يتفنن الشعراء

(١) البدر الطالع (٤١/١).

(٢)، (٣) انظر: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٢٤٧).

والأدباء فى مدح السلطان محمد لما قدمه إلى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التشجيع.

وكان محمد الفاتح ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب الذى يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاطه[١].

اهتمامه بالترجمة:

كان السلطان محمد الفاتح متقنًا للغة الرومية، ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية فى شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، من ذلك كتاب «مشاهير الرجال» لبلوتارك، ونقل إلى التركية كتاب التصريف فى الطب لأبى القاسم الزهراوى الطبيب الأندلسى مع زيادات فى صور آلات الجراحة وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية.

وعندما وجد كتاب بطليموس فى الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومى جورج أميروتزوس، ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه (ابن العالم الرومى) الذى كان يجيد اللغتين الرومية والعربية بترجمة الكتاب إلى العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق فى أسماء البلدان وكتابتها باللغتين العربية والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمة. وكان العلامة على القوشجى -وهو من أكبر علماء عصره فى الرياضيات والفلك- كلما ألف كتابًا بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح.

وكان الفاتح مهتمًا باللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن الكريم كما أنها من اللغات العلمية المنتشرة فى ذلك العهد، وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من أنه طلب إلى «المدرسين بالمدارس الثمانى أن يجمعوا بين الكتب الستة فى علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها». ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له فى قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم، وعين الشيخ لطفى أمينًا عليها، وكان

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٩٣).

بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام ١٤٦٥م، وقد وصف الأستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنها بمثابة نقطة تحول فى العلم بين الشرق والغرب[١].

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرمًا ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المبانى وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المبانى التى تعطى المدن بهاءً ورونقًا، واهتم بالعاصمة (إستنبول) اهتمامًا خاصًا وكان حريصًا على أن يجعلها (أجمل عواصم العالم) وحاضرة العلوم والفنون، وكثر العمران فى عهد الفاتح وانتشر، واهتم بدور الشفاء ووضع لها نظامًا مثاليًا فى غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب -ثم زيد إلى اثنين- من حذاق الأطباء من أى جنس كان، يعاونهما كحال وجراح وصيدلى وجماعة من الخدم والبوابين، ويشترط فى جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوى القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين فى اليوم وألا تصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط فى طباخ المستشفى أن يكون عارفًا بطهى الأطعمة والأصناف التى توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية فى هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم[٢].

الاهتمام بالتجارة والصناعة:

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب، وكان بذلك مقتفيًا خط آبائه وأجداده السلاطين الذين كانوا دائمًا على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم وأن كثيرًا من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا عندما خلصها الفتح العثمانى مما أصابها

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص(٣٩٦).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٤١٣).

فى عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التى عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن «نيقية» وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية وبالطرق البحرية والبرية، وطوروا الطرق القديمة وأنشأوا الكبارى الجديدة مما سهل حركة التجارة فى جميع أجزاء الدولة. واضطرت الدول الأجنبية إلى فتح موانيها لرعايا الدولة العثمانية ليمارسوا حرفة التجارة فى ظل الراية العثمانية، وكان من أثر السياسة العامة للدولة فى مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية فى جميع أرجاء الدولة، وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة[١]، ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة وأقامت القلاع والحصون فى المواقع ذات الأهمية العسكرية فى البلاد[٢].

الاهتمام بالتنظيمات الإدارية:

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته، ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شئون الإدارة المحلية فى دولته، وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع الحكيم، وشكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساسًا لحكم دولته، وكان هذا القانون مكونًا من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية، وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامى أيّاً كان أصله وجنسه[٣].

واهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التى تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة مع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التى تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجد فى ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة فى ربوع الدولة العثمانية.

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٤٢٤).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٤١٠).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٥٤).

وأبقى السلطان محمد النظام الذى كان سائدًا لحكم الولايات أيام أسلافه، وأدخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التى تناسب عصره ودولته، وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير الأمراء وكان يسمى «بكلربك»، وإلى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء، وكان يسمى «سنجق بك» وكلا الحاكمين كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية فى آن واحد، وترك لبعض الإمارات الصقلية فى أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلى فكان يحكمها بعض أمراء منها ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة، وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا فى الثورة على الحكومة العثمانية.

وعندما تعلن الدولة الجهاد وتدعو أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا فى الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزًا تامًا، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارسًا كامل السلاح قادرًا على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد إقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية(١).

وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاءة وحدها أساسًا فى اختيار رجاله ومعاونيه وولاته. واهتم بالنظام المالى ووضع القواعد المحكمة الصارمة فى جباية أموال الدولة، وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثروات هائلة.

لقد أظهر السلطان محمد فى الناحية الإدارية كفاءة ومقدرة لا تقلان عن كفاءته ومقدرته فى الناحيتين السياسية والحربية(٢).

اهتمامه بالجيش والبحرية:

لقد أنشئ الجيش النظامى من زمن السلطان أورخان، واهتم من جاء بعده من السلاطين بتطوير الجيش وخصوصًا السلطان محمد الذى أولى الجيش رعاية

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص (١٥٥).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (٤٠٦، ٤٠٧).

خاصة، فالجيش فى نظره من أسس الدولة وأركانها المهمة، فأعاد تنظيمه وترتيبه وجعل لكل فرقة (أغا) يقودها، وجعل لقيادة الإنكشارية حق التقدم على بقية القواد، فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذى جعل له السلطان القيادة العليا للجيش.

وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح - بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددى - بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون فى المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة فى تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال، وكان هناك صنف من الجنود يسمى «لغمجية» وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها، وكذلك السقاءون كان عليهم تزويد الجنود بالماء. ولقد تطورت الجامعة العسكرية فى زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين، وقد أكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة فى الدقة والنظام[1].

لقد حرص السلطان محمد على تطوير الجيش البرى والقوة البحرية، وظهرت أهميتها منذ فتح القسطنطينية، حيث كان للأسطول البحرى العثمانى دور واضح فى إحكام حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعًا، وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالسلاح البحرى، فلم تمض إلا مدة من الزمن حتى سيطر الأسطول العثمانى على البحرين الأسود والأبيض، وعندما نطالع كتاب (حقائق الأخبار عن دول البحار) لمؤلفه إسماعيل سرهنك، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وأنه كان اهتمامًا بالغًا استحق أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحرى العثمانى، ولقد استفاد من الدول التى وصلت إلى مستوى رفيع

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٦٢).

فى صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة «البندقية» و«جنوة» أكبر الدول البحرية فى ذلك الوقت(١). وعندما وجد فى سيئوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر السلطان محمد بأخذها وبناء سفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها(٢).

وكان الأسطول العثمانى تشرف الترسانة على إدارته، وكانت إحدى فروعه الخاصة وتسمى بطافة العزب، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندى بحرى تتألف من القبطان، وقواد السفن، والضباط والبحارة(٣).

اهتمامه بالعدل:

إن إقامة العدل بين الناس كانت من واجبات السلاطين العثمانيين، وكان السلطان محمد شأنه فى ذلك شأن من سلف من آبائه، شديد الحرص على إجراء العدالة فى أجزاء دولته، ولكى يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف فى أنحاء الدولة، ويمنحهم مرسومًا مكتوبًا يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة فى التنقيب والتحرى والاستقصاء لكى يطلعوا كيف تساس أمور الدولة، وكيف يجرى ميزان العدل بين الناس فى المحاكم، وقد أعطى هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة فى النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائمًا بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحقة والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف فى بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته .

وكان على إدراك تام بأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها، وأشد الناس حرصًا على إنفاذها، وكان يرى أن العلماء فى

---

(١)، (٢) انظر: محمد الفاتح، ص (٤١١).

(٣) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص (١٦٢).

الدولة بمنزلة القلب فى البدن، إذا صلحوا صلحت الدولة، ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم وأهله ويسر سبل العلم على طالبيه وكفاهم مؤونة التعيش والتكسب ليتفرغوا للدرس والتحصيل، وأكرم العلماء ورفع منزلتهم، وقد اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل فى أمور الناس، فلا يكفى فى هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين فى الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح فى عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية[1].

وتُحدثنا كتب التاريخ: أن أحد غلمان محمد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة فأرسل إليه القاضى بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع، فركب إليه القاضى بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضربًا شديدًا، فما أن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به، وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة. وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم فالتمسوا من المولى محيى الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه، فقال له المولى محيى الدين: إن النائب (أى القاضى بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء، فلم يكن هو عند الضرب قاضيًا فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (قتل الغلام)، فسكت السلطان محمد خان. ثم جاء الغلام إلى قسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكرًا للعفو عنه. فأحضر السلطان محمد خان عصًا كبيرة فضربه بنفسه ضربًا شديدًا حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرئ، ثم صار ذلك الغلام وزيرًا للسلطان بايزيد خان واسمه داود باشا، وكان يدعو للسلطان محمد خان ويقول: إن رشدى هذا ما حصل إلا من ضربه[2]. أما القاضى المرتشى فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

---

(١)، (٢) انظر: محمد الفاتح، ص (٤٠٩).

وكان السلطان الفاتح، برغم اشتغاله بالجهاد والفتوحات فإنه كان يتتبع كل ما يجرى فى أرجاء دولته بيقظة واهتمام، وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوى وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوى، وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكاواهم بنفسه[1]. كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز يجمع المعلومات والأخبار التى لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذى كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل فى أفرادها وجماعاتها، وقد استنبط السلطان الفاتح هذه المعانى من حال سليمان عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾[النمل: ٢٠] وذلك بحسب ما تقتضيه أمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل حالة فيه وخاصة الضعفاء[2].

***

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٤١٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبى (١٣/١٧٧).

المبحث السابع

وصية السلطان محمد الفاتح لابنه

هذه وصية محمد الفاتح لابنه وهو على فراش الموت والتى تعبر أصدق التعبير عن منهجه فى الحياة، وقيمه ومبادئه التى آمن بها والتى يتمنى من خلفائه من بعد أن يسيروا عليها: (هأنذا أموت، ولكنى غير آسف لأنى تارك خلفًا مثلك، كن عادلاً صالحًا رحيمًا، وابسط على الرعية حمايتك بدون تميز، واعمل على نشر الدين الإسلامى، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شىء، ولا تفتر فى المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها، وسِّع رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين.

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم فى بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

حذارِ حذارِ لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أى عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

خذ منى هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطانى الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكى، واحْذَ حذوى، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة فى ترف أو لهو، أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك)[١].

١- (كن عادلاً صالحًا رحيمًا):

لقد قام محمد الفاتح بهذه المبادئ مع النصارى الذين أصبحوا من رعايا دولته، وعندما دخل القسطنطينية فاتحًا كان يحارب حرب الإسلام (التى لا تهتك فيها

(١) السلطان محمد الفاتح، ص (١٧١، ١٧٢).

حرمة، ولا يقتل فـيه صبى ولا شيخ ولا امرأة، ولا يحرق فـيها زرع، ولا يتلف فيها ضرع، ولا يُمثل فيهـا بإنسان، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح فى وجه المسلمين)(١).

كان مـحمد الفاتح وهو يمـثل إسلامه وعقـيدته ومنهجه الإسـلامى فى الحرب على تعالـيم الصديق أبى بكر رضى الله عنه فى مـعاملته لـلروم (لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقـتلوا طفلاً صغيـرًا، ولا شيخًا كـبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعـوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له. . . اندفعوا باسم الله)(٢).

لقد دخل مـحمـد الفاتح إلى قلب العـاصمـة البيزنـطية وأعطى عالـم الغرب النصرانى دروسًا فى العدالة والرحمة، أصبحت معلمًا من معالم التاريخ العثمانى.

إن الدولة العثـمانية سارت على منهج الإسـلام، فأخذت منه العدالة والـرحمة بالرعايا الذين حكمـوهم، ولقد تحدث عـبد الرحمن عزام عن رحـمة العثمـانيين وعدالتهم بالشـعوب التى حكموها فقـال: (وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العـهود للدولة العثمـانية أنها كانت دولة عـظيمة، ولكن لـم تكن صـفة الرحمـة من مميزاتهـا، وهو خطأ شائع لا يقف أمـام البحث والتدقيق. . . ولقـد سمعت بنفسى حـديث هذه الرحمة فى «بسرابيـا» من رومانيا على نهر «الدنيستز» وقيـل لى: إن أمثلة الفلاحين فى هذه الأطراف النائية للملك العثمانى لا تزال تعبر عن رحمة التـركى وعدله، ومنها ما يشير إلى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض، وقد لفت نظرى فى بولونيا ورومـانيا وفى بلاد البلقان فى رحلاتى المتعـددة أمثلة وأساطير لا تزال تشـير إلى ما استـقر فى نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركى المسلم كرحيم عادل.

وفى سنة ١٩١٧م كنت فى فـيينا فروى لى أن البـولونيين مسـتبشـرون بوصول العساكر العثمانية إلى جاليسيا مددًا للنمساويين)(٣).

---

(١) المسألة الشرقية، محمود ثابت الشاذلى، ص (١٠٤).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (١٠٦).

(٣) الرسالة الخالدة، ص (٢٢، ٢٤).

ذلك (. . . بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين فى أوروبا، وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من همجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف، ويكفى أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظامًا دوليًا متعاهدًا عليه فى أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون. وكانت هناك عهود دولية بين المداف والبولونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من «البويار» إلى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ﷺ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عددًا من أية أمة من الأمم التى سادوها، فوصلوا على رءوسهم جميعًا إلى فيينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا)[١].

إن محمد الفاتح سار على منهج الرحمة والعدالة وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج الذى يمثل حقيقة الإسلام.

٢- (وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز):

وهذا ما قام به السلطان محمد بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا الدولة سواء مسلمين أو نصارى، ومن القصص اللطيفة فى هذا المعنى أنه كان على أهل جزيرة خيوس دين قدره أربعون ألف دوقة لتاجر من تجار «غلطة» يدعى فرانسسكوا درا بيريو، ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف أن هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم، وأرسل إلى الجزيرة عدة سفن بقيادة حمزة باشا إلا أن أهالى جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ورفضوا الانقياد ودفع الحقوق، فقال محمد الفاتح للتاجر درا بيريو، (أنا الذى سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطلب به مضاعفًا ثمنًا لدم الجنود الذين هلكوا)[٢].

---

(١) انظر: المسألة الشرقية، ص (١٠٧).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص (٢١٧).

وسير السلطان إلى هذه الجـزيرة أسطولاً وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه إلى الجزر القريبة منها وفتح أينوس بغير حرب ولا قتال، وبادرت جزيرتا أيمبروس وساموتراس إلى الاستسلام وفتحتا أبوابهما على مصـاريعها للعثمانيين، فاضطرت جزيرة خيوس إلى دفع ما عليها من دين للتاجر الجنوى، ودفـعت للسلطان جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة، ودفعت له فوق ذلك تعويضًا للسفن العثمانية التى غرقت[١].

إن حماية الرعية والحفاظ على حقوقهم من واجبات الدولة الإسلامية.

٣- (واعمل على نشر الدين الإسلامى، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض):

كان السلطان محمد الفـاتح فى حروبه لا ينسى أنه داعية إلى الإسلام، ولذلك كان يشـجع قواده وجنوده على نشر الدين والعـقيدة والإسـلام، ويثنى على القادة الذين تفتح المدن على أيديهم، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه إلى أثينا واستولى عليـها وضمها إلى الدولة العثـمانية، وتحرك القائد عمـر بجيشه واضطرت المدينة للتسليم وزار السلطان الفـاتح المدينة بعد عامين من فتـحها قال: (ما أعظم ما يدين به الإسلام لابن طرخان).

لقد اهتمت الدولة العثمانية بالدعـوة إلى الله وتركت بصماتها قوية واضحة فى مجـال نشر الدعوة فى أوروبا؛ فـعلى امتـداد قرون وتعاقب عـصور ودهور ظلت جماعات إسلامـية تقاوم شتى أنواع الضغوط التى بذلت لتحويلهـا إلى المسيحية، ولا زالت هذه الأقليات الإسلامية تعيش إلى يومنا هذا فى بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا يصل أعدادها إلى الملايين من البشر[٢]. وهذا يرجع إلى فضل الله على تلك الشعوب ثم إلى سـياسة السلاطين العثمانيـين الذين يحرصون على هداية الناس ودخولهم فى الإسلام.

٤- (قدِّم الاهتمام بأمر الدين على كل شىء ولا تفتر فى المواظبة عليه):

إن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة إسلامية، خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متـوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، خاضوا من

(١) انظر محمد الفاتح، ص (٢١٨).

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية، د. عبد العزيز الشناوى (١/ ٢٩، ٣٠).

أجلها حروبًا دينية شديدة، وكانت أجمل عبارة على ألسنة العثمانيين عند التنادى للجهاد والزحف إلى الفتوحات: إما غاز وإما شهيد، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازى - أى المجاهد فى سبيل الله-، وظل هذا اللقب الرفيع يتقدم كل الألقاب والنعوت بالنسبة للسلاطين العظام، وكانت غاية الدولة العثمانية (الدفاع عن الإسلام ورفع رايته على الأنام).

لذلك صبغت الدولة شعبًا وسلطانًا، حكومة وجيشًا، ثقافة وتشريعًا، نهجًا وضميرًا، هدفًا ورسالة، بصبغة إسلامية خالصة منذ النشأة، وعلى مدى سبعة قرون، لقد كان اهتمام السلاطين بأمر الدين عظيمًا وقدموه على كل شيء، وواظبوا عليه إلى أقصى حد وأكدوا أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام وتراثه وحضارته، وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون، وكلمة الملة تعنى الأمة والدين معًا، وذلك كان هدف المنهج التربوى فى جميع المدارس والجامعات والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم فى الكتاتب، وجميع المسلمين كانوا يسجلون فى دوائر النفوس - سجلات المواليد - وفى التذاكر العثمانية - بطاقات الهوية - كمسلمين فحسب، دون أن يذكر إلى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك، أو من العرب أو من الشراكسة أو الألبان أو الأكراد. إن ما يهم الدولة كان ينحصر فى ملتهم فى ديانتهم؛ إنهم مسلمون وكفى. واعتبر العثمانيون أى مقاتل مسلم جاهد فى سبيل الله ميراثهم البطولى وخلفيتهم التاريخية، وإن تباينت الأنساب، وتباعدت الأزمان؛ من ذلك المجاهد «عبد الله البطال» الذى استشهد فى معركة أكرنيوس فى آسيا الصغرى عام ١٢٢ للهجرة، زمن الدولة الأموية والذى يقول عنه الطبرى وهو يعلق على حوادث سنة ١٢٢هـ: (وفيها قتل عبد الله البطال فى جماعة من المسلمين بأرض الروم)[١]. يعتبره العثمانيون بطلهم القومى وبين «عبد الله البطال» العربى وقيام الدولة العثمانية ما يقرب من سبعمائة عام، لقد كان تاريخ العثمانيين وأبطال العثمانيين، نسب الإسلام، وتاريخ الإسلام، ومجاهدى الإسلام[٢].

---

(١) تاريخ الطبرى، الجزء الثانى حوادث سنة ١٢٢هـ.

(٢) المسألة الشرقية، ص (٥٧).

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت التى تبين أن هدفهم الأكبر ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقبون بمثل (سلطان الغزاة، والمجاهدين، وخادم الحرمين الشريفين، وخليفة المسلمين)[1].

٥- (ولا تستخدم الأشخاص الذى لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش):

ولذلك اهتم سلاطين الدولة العثمانية بإنشاء جامعات لتخريج قادة للجيش وللوظائف المهمة فى الدولة، ووضعوا منهجًا تربويًا لإعداد القادة وخصوصًا فى داخل الجيوش، وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول والنهى والتقى، وأسندوا إليهم الولايات والقيادات فى الجيوش ومناصب القضاة، وباعدوا عنهم كل من لا يهتم بأمر الدين، ويجتنب الكبائر والفواحش هكذا كان السلاطين الأوائل.

٦- (جانِبْ البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها):

إن السلاطين العثمانيين الأوائل ساروا على منهج أهل السنة والجماعة وعرفوا خطورة البدع والاقتراب من أصحابها، واكتفوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة واجتهادات العلماء الراسخين.

إن الشريعة الإسلامية الغراء التى سار عليها السلاطين العثمانيون ذمت البدع.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام: ١٥٩].

قال ابن عطية: (هذه الآية تعمّ أهل الأهواء والبدع والشذوذ فى الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدال والخوض فى الكلام، هذه كلها عرضة للزّلل، ومظنة لسوء المعتقد)[2].

---

(١) المسألة الشرقية، ص (٦٥).

(٢) انظر: بدر التمام فى اختصار الاعتصام لمحمد الجزائرى، ص (٣٢).

وفى الحديث الشريف قال ﷺ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[(١)].

وفى الصحيح عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله: هل بعد هذا الخير شر؟

قال: «نعم؛ قوم يستنُّون بغير سنتى، ويهتدون بغير هديى».

قلت: هل بعد ذلك الشرِّ شرٌّ؟

قال: «نعم؛ دعاة على نار جهنم، من أجابهم قذفوه فيها».

قلت: يا رسول الله، صِفْهم لنا.

قال: «نعم؛ هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا».

قلت: فما تأمرنى إن أدركت ذلك؟

قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم».

قلت: فإن لم يكن إمام ولا جماعة؟

قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[(٢)].

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»[(٣)].

إن الابتعاد عن المبتدعة ومحاربتهم من صميم الدين؛ لأن المبتدع:

لا يقبل منه عمل، وينزع منه التوفيق، وملعون على لسان الشريعة، ويزداد من الله بُعدًا، ممنوع من شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة، مُثير للعداوة والبغضاء بين أهل الإسلام، تارك للسنن، يُلقى عليه الذل فى الدنيا والآخرة، ويخاف عليه من سُوء الخاتمة، ويُسْوَّد وجهه فى الآخرة، ويُخشى عليه من الفتنة)[(٤)].

ولذلك كانت وصية السلطان محمد - رحمه الله - لمن بعده (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها).

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٤٤).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٨٤٧).

(٣) انظر: بدر التمام فى اختصار الاعتصام لمحمد الجزائرى، ص (٣٥).

(٤) المصدر السابق بتصرف، ص (٣٦ - ٣٨).

٧- (وسِّع رقعة البلاد بالجهاد):

إن السلاطين العثمانيين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدولة بالجهاد، وبسطوا الأمن وقمعوا الأخطار التى هددت دولتهم، وعملوا على تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يستطيع الأعداء أن يظفروا بثغرة أو ينتهكوا محرمًا أو يسفكوا دمًا مسلمًا أو معاهدًا، وعمل السلطان محمد ومن قبله على إعداد الأمة إعدادًا جهادياً وقام بواجبه فى جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى يسلموا أو يدخلوا فى ذمة المسلمين.

ولقد صبغ المجتمع العثمانى بالصبغة الإسلامية والجهادية الدعوية، وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية العنيفة، منذ نعومة أظفارهم، إعدادًا دقيقًا كاملاً، ولقد حققت الجيوش العثمانية انتصارات رفيعة فى الساحات الأوروبية[١]، لقد (حققت الدولة العثمانية إلى عهد سليمان القانونى آمالاً عظيمة كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون برفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى فى أوروبا، وإخضاع كثير من الممالك والإمارات للحكومة الإسلامية، وأخذ ظل الإسلام يمتد حتى أوشكت جيوش المسلمين فى شرق أوروبا وغربها أن تلتقى فى الأرض الكبيرة)[٢].

وفى المؤتمر السابع لوزراء خارجية الدول الإسلامية فى إستنبول ألقى المجاهد البروفسور المهندس نجم الدين أربكان خطابًا استرجع فيه صدى الماضى الإسلامى الذى مثلته الدولة العثمانية فقال: (. . . إن هذا القصر الذى شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الإسلامى الكبير وقد نقشت على بابه كلمة الإسلام الجامعة: «لا إله إلا الله». . هو قصر السلطان محمد الفاتح الذى بناه عقب فتح إستنبول. . كيف لا يكون هذا المكان تاريخياً ومنه كانت تدبر شئون العالم الإسلامى ردحًا من الزمن؟ وكيف لا يكون تاريخيًا ومنه كانت تنطلق جيوش المسلمين إلى جميع أنحاء الدنيا، مجاهدة فى سبيل الله، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت، كيف لا يكون تاريخيّاً وفوق هذا الحجر الذى يرتكز عليه الميكرفون كانت تنصب رايات الجيوش الإسلامية، المنطلقة للذب عن ديار المسلمين جميعًا. . وأذكر على

---

(١) انظر: المسألة الشرقية، ص (٦٠).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٦٣).

سبيل المثال لا الحصر: أن قرار إرسال الأسطول الإسلامى للحيلولة دون وقوع كل من إندونيسيا والفلبين فى براثن الاستعمار الهولندى اتخذ من هذا المكان، وفيه أيضًا اتخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل الإسلامية لحماية شمال إفريقيا من الغزاة الطامعين.

وفوق هذا كله فإن هذا البناء التاريخى يضم بين جدرانه لواء الرسول الأعظم ﷺ وبردته المباركة وسيوفه وكثيرًا من آثاره الشريفة...)[1].

لقد كانت الدولة تعطى لمبدأ الجهاد أهمية قصوى ولذلك أعدت شعبها وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الربانى وحققت من خلاله ثمرات مهمة للإسلام والمسلمين من أهمها:

- إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين.
- دخول الناس فى دين الله أفواجًا[2].
- إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته.

لقد اتصبغت الدولة العثمانية بالروح الجهادية ووضعت أهدافًا لها من أهمها:

- إقامة حكم الله ونظام الإسلام فى الأرض.
- دفع عدوان الكافرين.
- إزاحة الظلم عن الناس.
- نشر الدعوة الإسلامية بين البشر[3].

٨- (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد):

إن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هى الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأى الأمة، والمكلفة بحماية مصالحها، فمسئولية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع، وإنما هى مسئولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الإسراف والتبذير، والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال، وأهم موارد بيت المال:

---

(١) المسألة الشرقية، ص (٢٣ - ٦٥).

(٢) انظر: فقه التمكين فى القرآن الكريم، لعلى محمد الصلابى، ص (٣٦٩ - ٣٧٥).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٦٦، ٣٦٧).

- جمع الزكاة المفروضة وتوزيعها فى مصارفها المشروعة.

- ترتيب الخراج على أملاك الدولة المعمورة وتحصيل عائداته للإنفاق العام على الجيش وتنمية المرافق العامة.

- جباية الجزية على المعاهدين مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين.

- تحصيل عشور التجارة على الواردات من خارج نطاق الدولة العثمانية.

- التوظيف بقدر الحاجة على أفراد الأمة سواء كان تطوعيًا أو إلزاميًا لإنفاقها فى دروب الجهاد وسائر المصالح العامة طبقًا لقاعدة المصالح المرسلة.

- تشغيل الموارد وحمايتها كالحمى والمناجم وإحياء الموات، وتحصيل أنصبة الدولة منها لاستخدامها فى مجالات الإنفاق الحكومى[١].

وعلى الدولة أن تراقب النشاط الاقتصادى وتحرص على تطبيق أحكام الشريعة فيه، وتشمل:

- ضبط المقاييس والمواصفات المعيارية التى يحتاجها الناس فى أسواقهم مثل المكاييل والموازين، ومواصفات البضائع الجيدة.

- منع الغش، وإبطال العقود الفاسدة فى البيع والعمل.

- الأمر بالمعروف فى المعاملات كالصدق والعدل والوفاء فى المعاملة كالبيع والشراء والنهى عن المنكر فى البيوع كالحلف الكاذب على السلعة.

- منع تلقى الركبان والمناجشة فى البيع والتدليس والغبن الفاحش وغيره من الأساليب التى تؤدى إلى العداوة والبغضاء بين الناس.

- منع ترويج المحرمات كالخمر والخنزير وآلات القمار والميسر ووسائل اللهو المؤدى إلى تمويت القلوب.

- منع مظاهر الترف والإسراف، والتشجيع على نبذها[٢].

---

(١) انظر: اقتصاديات الحرب فى الإسلام، د. غازى التمام، ص(١٣٧).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (١٣٨).

٩- (وإياك أن تمد يدك إلى أموال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام):

إن وظيفة الدولة تنفيذ أوامر الشريعـة، والشريعة جاءت لحفظ أموال الناس التى هى قوام حياتهم. وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعى، فقال تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وحرم السـرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليـه تلك الجريمة، فقـال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾[المائدة: ٣٨].

وكذلك حرم الإسلام الربا الذى يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾[آل عمران: ١٣٠].

وحرم كـذلك الغش والاحـتكار والنهب والاختـلاس والغلول وغيـر ذلك من أشكال الاعتـداء على المال، وكل ذلك داخل فى أكل أموال الناس بالـباطل المنهى عنه.

ووظيفة الحاكم حماية أموال الرعية من السرقة والنهب لا أن يمد يده بغير وجه حق ويعتدى على أموال الناس.

١٠- (واضمن للمعوزين قوتهم وابذل إكرامك للمستحقين):

كان السـلاطين العثـمانيون يتـسابقـون فى الإحسان للفـقراء والمسـاكين وأبناء السبيل.. وكل من هو مـحتاج إلى البر والإحسان، وقـامت الدولة بأعمال جليلة فى هذا البـاب بل أوقف السـلاطين والوزراء أوقـافًـا عظيـمـة على طلاب العلم والفقـراء والمساكين والأرامل وغـير ذلك، وكان الوقف ركنًا أسـاسيًا فى اقتـصاد الدولة، يقول الأستـاذ محـمد حرب: (... نشطت الحـركة العلميـة فى جوامع إستنبول[1]... وكان صقوللى محمد باشـا -على سبيل المثال- ينفق على الحركة العلمـية فى إستنبـول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عـثمـانية فى تشيكوسلوفاكـيا (وكانت تـابعة للدولة العـثمانيـة)، وأسعـد أفندى قاضى عـسكر الروملى (يعنى

(١) الجامع فى النظام العـثمانى معمـاريًا وإداريًا وحدة دينية وعلميـة متكاملة فيهـا الجامع والمدرسة والمدارس الأقل من المدرسة والجامعـة، والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيـرى العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى.

البلقان) أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتى يصلن إلى سن الزواج. وكان لدى العثمانيين أوقاف كثيرة ومتعددة، مثل آخر كانت هناك أوقاف تصرف مرتبات للعائلات المعوزة -غير الأكل- لأن الأكل المجانى له أوقاف عاملة أخرى تسمى (عمارات وقفى) أى وقف المطاعم الخيرية وكانت الـ(عمارات) تقدم أكلاً مجانيًا لعدد يبلغ ٢٠,٠٠٠ شخص يوميًا مجانًا، وكان مثل هذا فى كل الولايات. . .)[١].

وكان المطعم الخيرى بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار أمريكى إلا قليلاً[٢].

وهكذا كانت سياسة الدولة على مستوى السلاطين والأمراء والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم وتكرم المستحقين بالإكرام.

١١- (وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة؛ فعظِّم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم فى بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال...):

لقد اهتم السلطان محمد الفاتح بترتيب وظائف العلماء فى الجوامع الكبرى ووضع لها تقاليد سابقة، ونظمها بمرسوم خاص، وأهم الوظائف فى المساجد الكبرى الخطيب والإمام، والقيم والمؤذن، ويقوم المرشحون لهذه الوظائف بطلب العلم فى المدارس الدينية الكبيرة التى كثيرًا ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافسًا نبيلاً، ويخضع الموظفون الدينيون فى العاصمة لسلطة المفتى مباشرة وكان ينوب عنه فى الولايات الكبرى قضاة العسكر؛ أما فى الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بكل المهام الدينية وخاصة فى الأرياف.

وكانت المدارس التى تعد الموظفين الدينيين يوجد بها ثلاث فئات من طلبة العلم: فـ(الصوفتا) وهى أدناها تليها فئة المعيدين الذى يحمل الطالب عند التخرج منها لقب (دانشمند) أو عالم، أما الفئة الأعلى فهى منصب المدرس، وبلغ عدد الصوفتا فى عهد السلطان مراد الثانى ٩٠ ألفًا، وكانوا كثيرًا ما يكون لهم أثر فى شئون الدولة[٣].

---

(١)، (٢) العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص (٤٢٢).

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص (٤٠٥).

وقد استحدث محمد الفاتح لقب شيخ الإسلام وهو الذى يترأس الهيئة الإسلامية فى الدولة، وهو يلى السلطان فى الأهمية، وكان التشريع والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد وممتلكات الأوقاف الواسعة جميعها خاضعة له، كما كان خاضعًا له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون، وكانت الأولوية فى بداية نشأة الدولة العثمانية لقاضى عسكر الذى رافق الجيش المحارب، ثم صارت للمفتى رئيس العلماء والفقهاء فى عهد السلطان سليمان القانونى، وأصبح المفتى هو شيخ الإسلام نفسه، وحرص السلاطين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام فكانوا يلجئون إلى استغلال سلطته والإفادة منها كلما تعرضوا لأزمة خطيرة وبلغ من ازدياد سلطة شيخ الإسلام أنه كان يحق له إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه[١].

كما كانت الدولة لا تقدم على حرب دون صدور فتوى منه يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين وكانت أحكام المفتى نهائية لا معقب عليها، وكان الجهاز الإسلامى المنبث فى جسم الدولة يضم الأشراف وهم الذين ينحدرون من سلالة الرسول ﷺ، وكان نقيب الأشراف يحتل مكانة عالية فى المجتمع[٢].

لقد قامت الدولة العثمانية بتأسيس جهاز للهيئة الدينية الإسلامية، وحرصت على أن تمتد جذورها فى أوساط الشعب والجيش وكل رعايا الدولة المسلمين، وقد أصبح أفراد هذه الهيئة يتولون مناصب القضاة والإفتاء وتدريس علوم الدين واللغة، والمشاركة على نحو ما فى إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية، والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها، وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال، ويقومون قبل المعركة بشحذ الجنود روحيًا ابتغاء رفع روحهم المعنوية، ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين فى صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقًا إلى العراق وفارس، وشمالاً إلى بلاد الشام، واتجهوا إلى مصر ثم شمال إفريقية، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس. ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تدور حول الجهاد الدينى والفوز بإحدى

(١)، (٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ص (٨٩).

الحسنيين: النصر أو الاستشهاد، ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت، حتى استطاعت الجيوش الإسلامية وقتذاك أن تدك معاقل دولة الفرس والدولة البيزنطية، كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمون الجنود فى صلاة الخوف وهم فى ساحات القتال..[1]

كان علماء الدولة الذين قادوا الهيئة الدينية ينظرون إلى السلطان على أنه يعتبر إمامًا للمسلمين، وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولى الأمر، كما يأمرهم سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

وكانوا يعتقدون أنه ليس لولى الأمر طاعة فيما وراء الشريعة؛ لأن الطاعة لهم تبعية، وليست أصلية، إنها طاعة مستمدة من أصل، وليست هى بذاتها أصلاً، وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين فى أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة، أوضح فيها منهجه فى الحكم وكان مما جاء فى هذه الخطبة المشهورة قوله: «أيها الناس إنى وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى.. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم..»[2].

وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائرًا على هدى الله وسنة رسوله، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وكان العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام يعتمدون على الشريعة عند الخلاف مع السلطان أو الصدر الأعظم، ولا يسمحون لهم أن ينحرفوا عن مبادئ الشريعة[3]، وكان الشعب يقف معهم ويلتحم معهم فى القضايا المصيرية؛ لأن العلماء كانوا يملكون القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا فى ممارسة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية، ونشاطهم فى مجالات التعليم بشتى درجاته، وعلى قمتها

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية (١/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢)، (٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٦٠).

الدراسات العليا فى الكليات حيث كانوا يقومـون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين، ولذلك كـانوا أكثر الـتفاقًا بـرجل الشارع وأكثـر تفاهمًا وتعـاطفًا وتجاوبًا مع الأهلين[1].

١٢- (حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبـعد أهل الشريعة عن بابك، وإياكَ أن تميل إلى أى عـمل يخـالف أحكام الشـريعة فـإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا):

إن السلطان محمد الفاتح يحذر وليـه من بعده أن يغتر بالمال أو الجند، ويبين له خطورة إبعـاد العلماء والفـقهاء عـن الحاكم، كمـا يحذره من أن يخـالف أحكام الشريعة، لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعـاسة وضنكًا فى الدنيا، وهلاكًا وعذابًا فى الآخـرة وإن آثار الابتعـاد عن شـرع الله وأحكامه تبـدو على حـياة الأمـة فى وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتابع وتتوالى على الناس حتى تمس جمـيع شئون حياتهم، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. إن من الآثار المتـرتبة على الابتـعاد عن أحكام الشـريعة أن تـصاب الأمة بالتبلـد وفقد الإحساس بالذات ومـوات ضميرها الروحى، فـلا أمر بمعروف تأمر به، ولا نهى عن منكر تنهى عنه، ويحدث لها مـا حدث لبنى إسرائيل عندما تركوا الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر، قـال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فإن أى أمة لا تعظم شرع الله أمـرًا ونهيًا فإنها تسقط كـما سقط بنو إسرائيل؛ قال رسول الله ﷺ: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخُذنَّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصـرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم»[2].

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية (١/٤٦٦).

(٢) سنن أبى داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث (٢٧٠).

وعندما تتغير النفوس من الطاعة والانقياد لأحكام الله إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله تتحقق فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] كما يترتب على ذلك توقف حركة الفتوح الإسلامية، وتحرم شعوب كثيرة من سعادتها فى الدنيا والآخرة بسبب تضييع أحكام الشريعة وارتكاب ما يخالفها من أفعال قبيحة، وتحدث الحروب فيما بين المسلمين وتكثر الاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، كما يقوى الأعداء وتشتد شوكتهم، ويغيب نصر الله على الإسلام والمسلمين ويحرموا من التمكين ويصبحوا فى خوف وفزع وجوع، وتضيع المدن والقرى ويتسلط عليها الأعداء وتتوالى المصائب وهذا ما حدث فى تاريخ الدولة العثمانية المتأخر.

إن من سنن الله تعالى المستنبطة من حقائق الدين وأحداث التاريخ أنه إذا عصى الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه، كما حدث فى تسليط النصارى على المسلمين فى الأندلس[1]، وكما فعل اليهود والإنجليز والروس.. فى تفتيت الدولة العثمانية.

إن السر فى قوة العثمانيين وعزهم وشرفهم كامنة فى طاعة الله وتنفيذ أحكامه، والالتزام بشريعته والجهاد فى سبيله والدعوة إليه، ولذلك قال محمد الفاتح لابنه (فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا).

١٣- (واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله):

إن تعزيز الدين وإقامته فى الأرض يحقق نتائج طيبة فى حياة الأمة والدولة، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذا كان الوازع الدينى ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين، ويكون مانعًا من ارتكاب الجريمة ومحاسبة النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائمًا وأبدًا، كما أن تعزيز الدين وإقامة الشرع يحققان المساواة بين الراعى والرعية فى الحقوق والواجبات وينشران العدالة فى الدولة الإسلامية لجميع ساكنيها، كما

---

(١) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين لعلى الصلابى، ص (١٦٧).

أن فى تطبيق الشريعة نزول البركة، وتوالى النعم، إذ ليس هناك طريق مستقل لحسن الجزاء فى الآخرة وطريق مستقل لصلاح الحياة فى الدنيا، إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة، وفى تطبيقها بركات فى النفوس وبركات فى المشاعر وبركات فى طيبات الحياة، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامى معتز بدينه وعقيدته بما التزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة، كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقى والتقدم لما تضمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحياة كما أنها تتضمن نبذ عفن الحياة الحضارى لمجتمعات الرذيلة أياً كانت وأينما وجدت[1].

إن الناس يحتاجون إلي العلماء الربانيين ليعلموهم دينهم ويربوا نفوسهم على طاعة الله، ولذلك لابد للقيادة الإسلامية من احترامهم وتقديرهم وإكرامهم، فهم الذين يبينون للناس حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

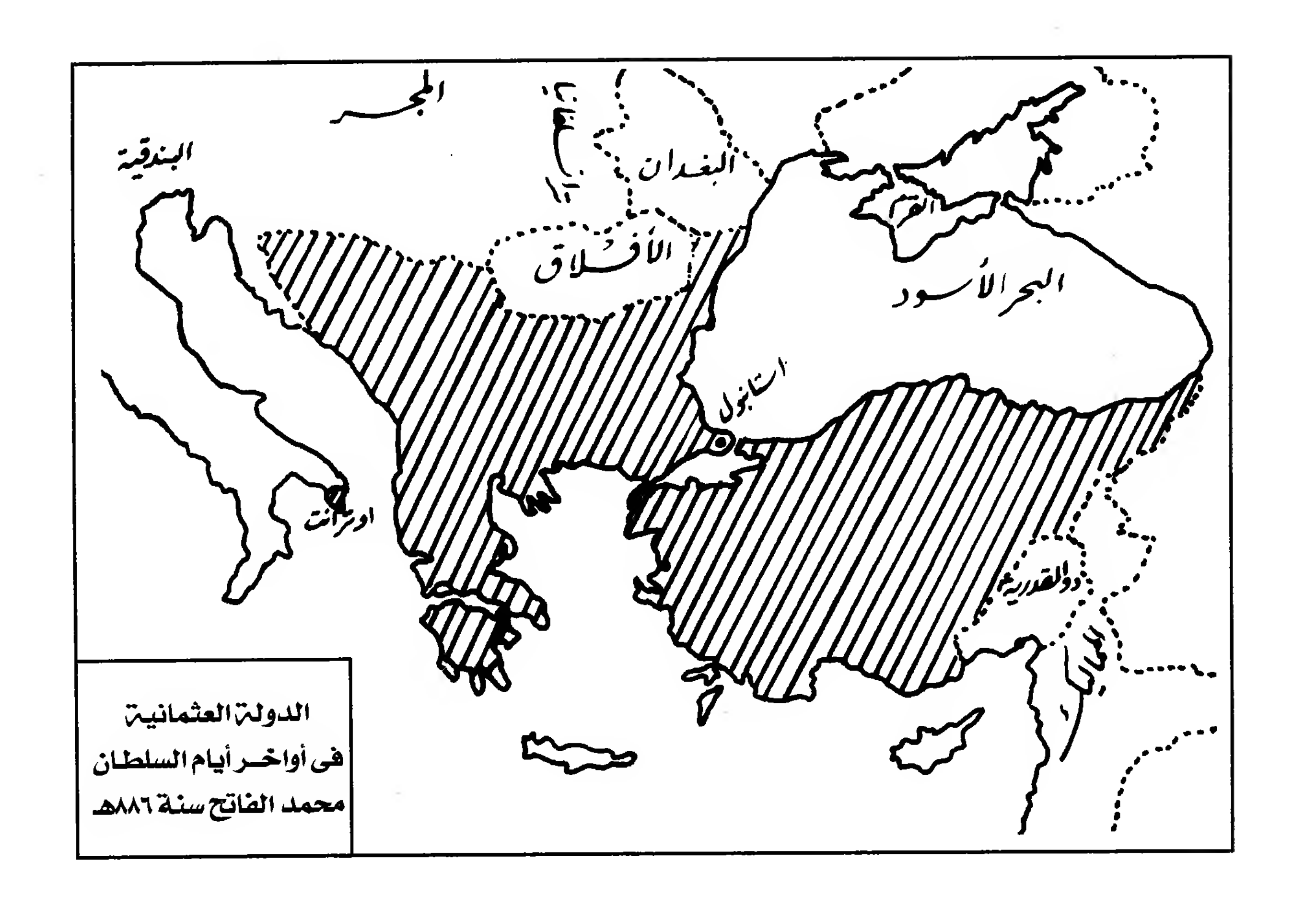
١٤- (ولا تصرف أموال الدولة فى ترف أو لهو، أو أكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك):

إن هذه الوصية ترشد ولي عهد السلطان محمد الفاتح إلى الاعتدال والتوسط فى الاستهلاك، وهذه الوصية فهم لأمر الله ورسوله بالقصد والتوسط، ولقد أنزل الله كثيراً من الآيات التى تمتدح القصد والاعتدال وتذم ما سواه من البخل والشح والتبذير والإسراف والترف، قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالي يصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

إن السلطان محمد الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله.

---

(١) انظر: تطبيق الشريعة الإسلامية للطريقى، ص (٦٠، ٦١).



الدولة العثمانية
فى أواخر أيام السلطان
محمد الفاتح سنة ٨٨٦هـ

إن الدولة العثمانية كدولة مجاهدة كانت لها خطة اقتصادية لتدبير موارد الأمة في ظروف الحرب لتأمين احتياجات جيشها، وتوفير الحاجات الضرورية لشعبها من السلع والخدمات، ولذلك كان السلاطين الأوائل فى الدولة العثمانية يمنعون الإسراف والتبذير فى القطاع الحكومى والقطاع الخاص، وكانت الدولة ترشّد الاستهلاك العام والخاص حتى لا تقع الأمة فى أزمات اقتصادية خلال الحرب التى تتسبب فى هزائم الأمم، فكانت الدولة بالتعاون مع قطاعات أخرى حكومية وشعبية تقوم بما يلى:

١- توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحرب، وعلى ضروريات المجتمع من الغذاء والدواء والحماية.

٢- توفير الإمدادات اللازمة خلال الحروب والأزمات.

٣- تعويض النقص من مخزون السلع والأجهزة الحيوية من الإنتاج المحلى بقدر الإمكان.

٤- السيطرة على التضخم فى الأسعار الذى يصاحب عادة حالات الحرب.

٥- التوزيع العادل للسلع والخدمات الضرورية بما يؤمن حد الكفاية لكل فئات المجتمع(١).

إن الدول التى تقع فى الترف واللهو، وتصرف أموالها فى غير محلها مآلها إلى الهلاك والدمار، ولقد أدى الترف إلى انغماس بعض السلاطين المتأخرين فى حياة الفسق واللهو بحيث يقضون أوقاتهم فى الملذات وقضاء أوقاتهم بين الحريم، وقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن أمور الحكم وتركها للصدور العظام وللحريم، فانعكس ذلك على ضعف السلاطين، وعدم قدرتهم على تسيير أمور الدولة وقيادة الجيش، مما أثر على أوضاع الدولة وأدى إلى ضعفها ثم اضمحلالها وضياعها فيما بعد(٢).

وفاة السلطان محمد الفاتح وأثرها على الغرب والشرق:

فى شهر ربيع الأول من عام ٨٨٦هـ - ١٤٨١م غادر السلطان الفاتح القسطنطينية إلى آسيا الصغرى حيث كان قد أُعد فى إسكدار جيش آخر كبير،

---

(١) انظر: اقتصاديات الحرب فى الإسلام، ص (٣٣٩).

(٢) انظر: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى، ص (٩٤).

وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه من استنبول قد أصابته وعكة صحية إلا أنه لم يهتم بذلك لشدة حبه للجهاد وشوقه الدائم للغزو وخرج لقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد فى خوض غمار المعارك شفاء لما يلم به من أمراض إلا أن المرض تضاعف عليه هذه المرة، وثقلت وطأته بعد وصوله إلى إسكدار فطلب أطباءه، غير أن القضاء حم به فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه العرمرم يوم الخميس (٤ ربيع الأول ٨٨٦هـ / ٣ مايو ١٤٨١م) وهو فى الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيفًا وثلاثين عامًا[١].

وبعد أن ذاع نبأ الوفاة فى الشرق والغرب، أحدث دوياً هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام، أما النصرانية فقد غمرها الفرح والابتهاج والبشرى، وأقام النصارى فى رودس صلوات الشكر على نجاتهم من هذا العدو المخيف[٢]. وكانت جيوش الدولة العثمانية قد وصلت إلى جنوب إيطاليا لفتح كل إيطاليا وضمها للدولة العثمانية إلا أن خبر الوفاة وصلهم فانتاب الجنود هم شديد وحزن عميق، واضطر العثمانيون فى الدخول لمفاوضات مع ملك نابولى لينسحبوا آمنين على حياتهم وأمتعتهم وعتادهم، وتمّ الاتفاق على ذلك إلا أن النصارى لم يفوا بما تعهدوا واعتقلوا بعض الجنود الذين كانوا فى المؤخرة وصفدوهم بالحديد[٣].

وعندما وصل خبر وفاة السلطان إلى روما ابتهج البابا وأمر بفتح الكنائس وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرقات وهى تنشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع وظلت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمة فى روما طيلة ثلاثة أيام، لقد تخلصت النصرانية بوفاة محمد الفاتح من أعظم خطر كان يهددها[٤].

لم يكن أحد يعلم شيئًا عن الجهة التى كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس فى ذلك مذاهب شتى. فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التى امتنعت على قائده مسيح باشا؟ أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر فى جنوبى إيطاليا، ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالى إيطاليا ففرنسا وإسبانيا؟

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧٢). (٢)، (٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٣).

(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٤).

لقد ظل ذلك سراً طواه الفاتح فى صدره ولم يبح به لأحد ثم طواه الموت بعد ذلك[1].

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التى يقصدها ويتكتم أشد التكتم، ويترك أعداءه فى غفلة وحيرة من أمرهم، لا يدرى أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة، ثم يتبع هذا التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة فى التنفيذ فلا يدع لعدوه مجالاً للتأهب والاستعداد[2]. وذات مرّة سأله أحد القضاة: أين تقصد بجيوشك؟ فأجابه الفاتح: «لو أن شعرة فى لحيتى عرفت ذلك لنتفتها وقذفت بها فى النار....»[3].

إن من أهداف الفاتح أن يمضى بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها فى الشمال، ويستمر فى فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وإسبانيا وما وراءهما من الدول والشعوب والأمم.

لقد تأثر المسلمون فى العالم الإسلامى بوفاة محمد الفاتح وحزنوا عليه حزنًا عميقًا، وبكاه المسلمون فى جميع أقطار المعمورة، لقد بهرتهم انتصاراته، وأعاد إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السلف الصالح[4].

قال عن وفاته عبدالحى بن العماد الحنبلى فى وفيات سنة ست وثمانين وثمانمائة: (.. كان من أعظم سلاطين بنى عثمان وهو الملك الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهادًا، وأقواهم إقدامًا واجتهادًا، وأثبتهم جأشًا وقوادًا، وأكثرهم توكلاً على الله واعتمادًا، وهو الذى أسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق فى أجياد الزمان.

وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية فى صفحات الليالى والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى وساق إليها السفن تجرى رخاءً

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧٧).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٥٩).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٢٦٠).

(٤) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص(١٦٨).

براً وبحراً، هجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يومًا أشد الحصار، وضيق على من فيها من الكفار الفجار، وسل على أهلها سيف الله المسلول، وتدرع بدرع الله الحصين المسبول، ودق باب النصر والتأييد، وثبت على متن الصبر، إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج القريب ونزلت عليه ملائكة الله الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب، ففتح استنبول فى اليوم الحادى والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وصلى فى أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهى آيا صوفيا وهى قبة تسامى قبة السماء وتحاكى فى الاستحكام قبب الأهرام ولا وهت كبرًا ولا هرمًا. وقد أسس فى استنبول للعلم أساسًا راسخًا لا يخشى على شمسه الأفول وبنى مدارس كالجفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول، فجزاه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجرًا وأكبر ثواب، فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر إفاقتهم، وجعل بعد ذلك مراتب يترقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها، إلى أن يصلوا إلى السعادة الدنيا ويتوسلوا بها أيضًا إلى سعادة العقبى، وأنه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم إليهم وعطف بإحسانه إليهم، كمولانا على القوشجى والفاضل الطوسى والعالم الكورانى وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام، فصارت استنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا، واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام، وأهل حرفها أدق الفطناء فى الأنام، وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام، فللمرحوم المقدس قلادة منن لا تحصى فى أعناق المسلمين، لا سيما العلماء الأكرمين)[1].

فرحمة الله ومغفرته ورضوانه على السلطان محمد الفاتح وأعلى ذكره فى المصلحين.

***

(١) شذرات الذهب (٧/ ٣٤٥).

الخلاصة

١- تعرض التاريخ العثمانى لحملات التشويه والتزوير والتشكيك من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين.

٢-سار مؤرخو العرب والأتراك فى ركب الاتجاه المعادى لفترة الخلافة العثمانية.

٣-احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الإسلامية وقامت بدعم المؤرخين فى مصر والشام إلى تأصيل الإطار القومى وتعميقه من أمثال البستانى واليازجى وجورج زيدان وأديب إسحاق وسليم نقاش وشبلى شميل، وسلامة موسى، وغيرهم.

٤-استطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومى فى داخل الشعوب الإسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الإسلامى.

٥-اعتمد المؤرخون الذين عملوا على تشويه الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان، والتشكيك والدس، ولقد غلب على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الأعمى، والدوافع المنحرفة، بعيدة كل البعد عن الموضوعية.

٦-قام مجموعة من علماء التاريخ من أبناء الأمة بالردود على تلك الاتهامات والدفاع عن الدولة العثمانية من أهمها وأبرزها تلك الكتابة التى قام بها الدكتور عبد العزيز الشناوى فى ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان «الدولة العثمانية دولة إسلامية فى التاريخ والحضارة»، و«السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم»، وما كتبه الدكتور موفق بنى المرجة، «صحوة الرجل المريض».

٧-ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت تعيش فى كردستان، وتزاول حرفة الرعى.

٨-هاجر سليمان جد عثمان فى ٦١٧هـ مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر فى مدينة أخلاط فى شرق تركيا حاليًا.

٩-تولى زعامة قبيلة سليمان بعد وفاته ابنه أرطغرل الذى واصل تحركه نحو الشمال الغربى من الأناضول، وفى طريقه وجد صراعًا مسلحًا بين السلاجقة المسلمين والروم النصارى، فانضم إلى المسلمين وكان تدخله فى الوقت المناسب سببًا فى تحقيق نصر السلاجقة.

١٠-اقتطع القائد الإسلامى السلجوقى أرطغرل ومجموعته أرضًا من الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور فى الروم، وأتاح لهم فرصة توسيعها على حساب الروم.

١١-تولى عثمان الأول قيادة قومه بعد وفاة أبيه وسار على نهج سياسة أبيه السابقة فى التوسع فى أراضى الروم.

١٢-كان عثمان الأول يتميز بصفات رفيعة منها: الشجاعة، والحكمة والإخلاص، والصبر، والجاذبية الإيمانية، والعدل، والوفاء، والتجرد لله فى فتوحاته، وحبه للعلم والعلماء.

١٣-كانت حياة عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية، جهادًا ودعوة فى سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون به ويشرفون على التخطيط الإدارى والتنفيذ الشرعى فى الإمامة. ولقد حفظ لنا التاريخُ وصيةَ عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد.

١٤-تولى أورخان الحكم بعد وفاة والده عام ٧٢٦هـ وسار على نفس سياسة والده فى الحكم والفتوحات، وحرص على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ فى فتح القسطنطينية، ووضع خطة استراتيجية تستهدف محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق فى آن واحد.

١٥- إن من أهم الأعمال التى ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامى، وحرصه على إدخال نظام خاص للجيش، فقام بتقسيم الجيش إلى

وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش، وجعله جيشًا دائمًا بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها.

١٦- اهتم أورخان بتوطيد أركـان دولته ووالى الأعمال الإصلاحيـة والعمرانية ونظم شئـون الإدارة وقوى الجيش وبنى المـساجد وأنشـأ المعاهد العلميـة، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام فى الدولة.

١٧- تولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطـان مراد الأول عام ٧٦١هـ وكان مراد الأول شجاعًا مجاهدًا كريمًا متدينًا، وكان محبًا للنظام متمسكًا به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغـوفًا بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكـان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلسًا لشوراه، وتوسع فى آسيا الصغرى وأوربا فى وقت واحد.

١٨- استطاع مـراد الأول أن يفتح أدرنة فى عام ٧٦٢هـ واتـخذ من هذه المدينة عاصمـة للدولة العثمانيـة من عام ٧٦٢هـ، وبذلك انتقلت العـاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية.

١٩- كـان السلطان مراد الأول يعلم أنه يـقاتل فى سـبيل الله وأن النصـر من عنده، ولذلك كان كـثير الدعاء والإلحـاح على الله والتضرع إليه والتـوكل عليه، ومن دعائه الخاشع نسـتدل على معرفة السلطان مـراد بربه وتحقيقه لمعـانى العبودية واستشهد فى معركة قوصوة ضد الصرب.

٢٠- قاد السلطـان مراد الشعب العـثمـانى ثلاثين سنة بكل حكمة ومـهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره.

٢١- تولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام ٧٩١هـ، وكان شجـاعًا شهمًا كريمًا متحـمسًا للفتـوحات الأسلاميـة، ولذلك اهتم اهتمامًا كـبيرًا بالشئـون العسكرية واستـهدف الإمارات المسيـحية فى الأناضول، وخـلال عام أصبـحت تابعة للدولة العثمانـية، وكان بايزيد مثل البرق فى تحركـاته بين الجبهتين البلقانيـة والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب (الصاعقة).

٢٢- انهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم إحسانه لاختيار المكان الذى نزل به جيشه.

٢٣- تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلى ونشبت الحرب الأهلية فى الدولة بين أبناء بايزيد على العرش، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلى المتمثل فى فتح القسطنطينية.

٢٤- استطاع السلطان محمد جلبى أن يقضى على الحرب الأهلية بسبب ما أوتى من الحزم والكياسة وبعد النظر، وتغلب على إخوته واحدًا واحدًا حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطة، وقضى سنى حكمه العثمانى فى إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثانى للدولة العثمانية.

٢٥- استطاع السلطان محمد جلبى أن يقضى على حركة الشيخ بدر الدين الذى كان يدعو إلى المساواة فى الأموال، والأمتعة، والأديان، ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم فى العقيدة.

٢٦- كان السلطان محمد جلبى محباً للشعر والأدب والفنون وقيل: هو أول سلطان عثمانى أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة.

٢٧- تولى أمر السلطنة مراد الثانى عام ٨٢٤هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبى وكان محبّاً للجهاد، والدعوة إلى الإسلام، وكان شاعراً ومحبّاً للعلماء والشعراء.

٢٨- تولى محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده فى عام ٨٥٥هـ وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة، وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما فاق أقرانه منذ حداثته فى كثير من العلوم التى كان يتلقاها فى مدرسة الأمراء، وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ.

٢٩- كانت من أهم أعمال السلطان محمد الثانى فتحه للقسطنطينية، وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامى والأوروبى، وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها.

٣٠- حرص العثمانيون على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثمانى منها: الاستخلاف والتمكين، الأمن والاستقرار، النصر والفتح، العز والشرف، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار.

٣١- من أهم الصفات القيادية فى شخصية محمد الفاتح، الحزم والشجاعة والذكاء، العزيمة والإصرار، العدالة، عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، الإخلاص، العلم.

٣٢- من أعمال محمد الفاتح الحضارية: بناؤه للمدارس والمعاهد، ورعايته للعلماء والشعراء والأدباء، والترجمة، والعمران والبناء والمستشفيات، واهتمامه بالتجارة والصناعة، والتنظيمات الإدارية، والجيش والبحرية والعدل.

٣٣- ترك محمد الفاتح وصية عبرت أصدق التعبير عن منهجه فى الحياة، وقيمه ومبادئه التى آمن بها.

٣٤- يعتبر الشيخان محمد بن حمزة المشهور بـ(آق شمس الدين)، وأحمد الكورانى من الشيوخ الذين كان لهم أثر على محمد الفاتح.

٣٥- قال الشاعر:

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج	مؤملاً جبر ما لاقيت من عوج
فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا	فكم لرب السماء فى الناس من فرج
وإن ظللت بقفر الأرض منقطعًا	فما على أعرج من ذاك من حرج

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

المصادر والمراجع

(أ)

١- إعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن القيم، مراجعة وتعليق طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت - لبنان.

٢- اقتصاديات الحرب فى الإسلام، د. غازى التمام، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، خالد السبت، المنتدى الإسلامى.

٤- أوروبا فى العصور الوسطى، سعيد عاشور، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

(ب)

٥- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، دار الريان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦- بدر التمام فى اختصار الاعتصام، اختصره أبو عبد الفتاح محمد السعيد الجزائرى، دار الحنان الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، الإمارات العربية المتحدة.

٧- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن على الشوكانى، دار المعرفة، بيروت.

٨- البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، دار الفكر، سورية- دمشق.

(ت)

٩- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبرى، دمشق، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٠- تاريخ ابن خلدون، الطبعة المصورة.

١١- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ.

١٢- تاريخ الدولة العثمانية ، د. على حسون، المكتب الإسلامى، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

١٣- تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزنتونا، ترجمه إلى العربية عدنان محمود سلمان، د. محمود الأنصارى، المجلد الأول- منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا. إستانبول، ١٩٨٨م.

١٤- تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور إحسان حقى، دار النفائس، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٥- تاريخ سلاطين آل عثمان ، تأليف سويف آصاف، تحقيق بسام الجابى، دار البصائر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٦- تاريخ سلاطين آل عثمان ، للقرمانى، دار البصائر -دمشق- سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٧- التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى ، د. على عبد الحليم، دار الوفاء، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٨- تركيا والسياسة العربية ، أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا.

١٩- تطبيق الشريعة الإسلامية ، د. عبد الله الطريقى، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٠- تفسير أبى السعود، المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، الإمام أبو السعود محمد بن محمد العمادى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.

٢١- تفسير السعدى ، المسمى تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى، المؤسسة السعدية بالرياض، ١٩٧٧م.

٢٢- تفسير الطبرى المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن ، لابن جرير الطبرى، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ.

٢٣- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، تحقيق: عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة - مصر.

٢٤- تفسير القرطبى، لأبى عبد الله القرطبى.

٢٥- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت.

٢٦- تفسير النسفى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام أبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى.

(ج)

٢٧- جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين، زياد غنيمة، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(ح)

٢٨- الحسبة فى العصر المملوكى، د. حيدر الصافح، دار الإعلام الدولى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٢٩- حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سرهنك، المطبعة الأميرية، ببولاق مصر، الطبعة الأولى، ١٣١٢هـ.

٣٠- الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى، عبد العزبز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣١- الحكومة الإسلامية للمودودى، ترجمة أحمد إدريس، نشر المختار الإسلامى للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(خ)

٣٢- الخلافة والملك للمودودى، تعريب أحمد إدريس، دار القلم، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(د)

٣٣- الدولة العثمانية، أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، د. جمال عبد الهادى، د. وفاء محمد رفعت جمعة، على أحمد لبن، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٤- الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبد العزيز الشناوى، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.
٣٥- الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، د. إسماعيل أحمد، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(ر)

٣٦- الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، القاهرة ١٩٤٦م.

(س)

٣٧- السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع فى تونس.
٣٨- السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، عبد السلام عبد العزيز فهمى، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٣٩- سنن أبى داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.
٤٠- سنن الترمذى، لأبى عيسى الترمذى، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة.

(ش)

٤١- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلى، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
٤٢- شرح صحيح مسلم، الإمام النووى، دار الكتب العلمية، بيروت.

(ص)

٤٣- صحيح البخارى، للإمام محمد بن إسماعيل.
٤٤- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان - الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

(ع)

٤٥- العثمانيون فى التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٤٦- العثمانيون والبلقان ، د. على حسون، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(ف)

٤٧- فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، محمد مصطفى.

٤٨- فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، محمد صفوت، منشورات الفاخرية، الرياض ودار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.

٤٩- الفتوح الإسلامية عبر العصور ، د. عبد العزيز العمرى، دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥٠- فقه التمكين عند دولة المرابطين ، على محمد الصلابى، دار البيارق، عمان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٥١- فقه التمكين فى القرآن الكريم ، لعلى محمد الصلابى، رسالة دكتوراة.

٥٢- فى أصول التاريخ العثمانى ، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ.

٥٣- فى ظلال القرآن الكريم ، سيد قطب، دار الشروق.

(ق)

٥٤- قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين ، د. زكريا سليمان بيومى، عالم المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٥٥- قيام الدولة العثمانية ، د. عبد اللطيف عبد الله دهيش، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(ك)

٥٦- الكامل فى التاريخ ، على بن محمد بن أبى الكرم بن عبد الكريم، القاهرة.

(م)

٥٧- المجتمع المدنى فى عهد النبوة ، الجهاد ضد المشركين، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٥٨- مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن القاسم.
٥٩- محمد الفاتح ، د. سالم الرشيدى، الإرشاد، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩م/ ١٤١٠هـ.
٦٠- المسألة الشرقية ، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلى، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
٦١- المستدرك على الصحيحين ، الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابورى، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، محمد أمين دمج - بيروت - لبنان.
٦٢- مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٦٣- معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد ، تأليف الشيخ الحافظ أحمد حكمى، تعليق عمر محمود، دار القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٦٤- منهج الرسول فى غرس الروح الجهادية فى نفوس أصحابه ، نشرته جامعة الإمارات العربية، د. السيد محمد السيد نوح، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
٦٥- مواقف حاسمة ، محمد عبد الله عنان.

(ن)

٦٦- النجوم الزاهرة ، لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
٦٧- النظام السياسى فى الإسلام ، د. محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

***

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى
محمد الفاتح وفتح القسطنطينية